عِطر البارود

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

2019 – 1441

رقم الإيداع: 20188 / 2019

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 389 – 8

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

عِطر البارود

رواية

هاشم محمود حسن

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2019

إهداء

إلى أبي...

الذي خرج قسرًا ذات قصف من قريته الوادعة (باشري) آملاً أن يعود إليها مطهرة من دنس الاستعمار، ولم يعد.

أمطر الله الرحمة على قبره، حيث يرقد هناك بسلام.

هاشم محمود حسن

«المنفى هو التعبير المهذب لكلمة موت».

نزارقباني

مقدمة

الحروب والصراعات ورحلات التحرير ليست بالأمر الهين، والـذي يمكن لرواية أن تجمع كل مجرياتها وجوانبها، لكن يمكن إلقاء الضوء على خط من خطوط السير أو مكسب من المكاسب أو أرضية من الأرضيات المكتسبة بفعل الصمود والصبر والكفاح للحصول عليها.

ففي روايـة «عطر البارود» والتي جمع اسمها بين متناقضين؛ فالبارود هذا المسحوق الأسود، هو دلالة الحرب والصراع والرائحة الموحشة والكريهة، وكذلك الاغتصاب البين، والتي أن دلت على شيء دلت على الوحشة والفزع وعدم الاستقرار، لكن كيف له بعطر، ذلك هو ما حاول الكاتب أن يسرده في قصص إنسانية جعلت لذلك البارود رائحة، فلم يستسلم أصحاب الأرض أمام

الاحتلال، بل كافحوا وناضلوا ونثروا عطورهم الفواحة الجميلة في ثوب الإنسانية.

فعلى رائحة البارود تستمر الحياة، ويولد طفل ويموت آخر، تولد قصص حب وشوق، حب كبير للوطن وميثاق غليظ للأشخاص ليربطهم رباط المحبة والإنسانية، ليخلفوا وراءهم أجيالًا تؤمن بهم وبقضاياهم.

فحاول ذلك العمل أن يسرد رحلة تحرير الوطن بين مشقة وعذاب، وبين نسيج إنساني على رائحة البارود ليطلق عليه «عطر البارود»، ليؤكد أن الإنسانية ستنتصر مهما شق البارود غباره وسواده.

حاول ذلك العمل أن يؤكد أن ذاكرة الزمان لا تنسى أفعال المحتلين ونضال الثائرين، لتحيي الذكرى والأثر الطيب بعلو ميزان العدل الذي ينصفه التاريخ في ذاكرته، فلا أحد يمكنه أن يفلت من العقاب، أو يغير من أحداث

الزمان، وإن لم ينطق الأشخاص ستنطق أفعالهم وأرضهم، لتكون شاهدًا عليهم.

كما لايمكن أن يستمر مجد أو نصرة على إنقاد من سبقوه، فالصامت غالبًا ليس بشخص جبان، بل صامد ساكن إلى أجل مؤقت في انتظار أن يضرب ضربته؛ فالعاقل هو من يصمت حين يستلزم الصمت، وليس ذلك جُبنًا، فالجبن كل الجبن في نكران الجميل وسرقت التاريخ وتزوير الأحداث.

قد يهرب البعض من تبعات الاستعمار وحاجة الوطن إليه، ويكتفي بأن يحكي عن أمجاد وهمية لا دور له فيه، لينقض على حق من حقوق غيره الصامدين، لكن لا يستمر ذلك طويلا، فالكذب مضلل والصدق قادر على أن يعلو بصاحبه تحت شعار الوطن، فلا يدوم من تمسك بروحة دون وطنه، من أراد أن ينجو بنفسه دون أن يساعد في نصرة وخلاص وطنه، لتظل في النهاية الأمجاد للمخلصين المثابرين الساعين للحرية والحب والسلام.

الكاتب حاول بتسلسل بسيط وسرد شيق أن يوثق لحظات الألم والتي يتخللها لحظات للفرح، كأن يجمع الله المحبين بعد فراق الوطن، كأن يجعل القلوب تتوحد بوحدانيته وبأحقية الحب، وأن الله يأخذ ويعطي في نفس الوقت، فبينما تموت طفلة في رحلة السفر بعد ترك الوطن، ومأساة إنسانية كبيرة تعانيها الأم ورفقاء الطريق من ذلك كأنها دلالة على حزن الوطن على فراق أهله.

وفي الوقت نفسه كانت مريم طفلة أخرى تولد في مخيم اللاجئين، وكأن الله أخذ خديجة وبعث مريم، أخذ خديجة حزنا على فراق الوطن، وبعثه بمريم كرسالة للثورة على الأوضاع والعودة من جديد لنصرة الوطن.

كان الكاتب موفقًا حتى في اختيار اسم المولودة التي كان عنوان العودة فمريم ابنة عمران بعد أن بث فيها الله من روحه جاءت بعيسى، وها هو المخيم قد جاء بمريم ليبث في الناس الأمل والقوة من أجل جمع الشمل ومحاربة العدو الإثيوبي لنصرة الوطن.

أما عن شخوص الرواية وإدارة الأحداث فغلب الطابع الإنساني على الأصدقاء الخمس الذين صاروا بفعل الأحداث أخوة تجمعهم المحبة ويوحدهم الهدف، في سياق حرب وتحرير، فينضموا لمعسكرات بلادهم، كل يوزع في مكان يستطيع أن يقدم من خلاله أفضل ما يملك لنصرة الوطن.

الحياة ليست بالهينة داخل المخيمات، وهو ما حاول الكاتب توثيقه بوصف دقيق من خلال جملة بسيطة جمعت كل معاني الألم، «هنا أجساد أكلها المرض، وقلوب أنهكها الحزن، هنا أمراض لا آخر لها، هنا حروب نفسية وجسدية قادر أن تنهي عمر الإنسان دون رحمة».

كما حاول الكاتب أن يوثق حالة الاستنهاض التي كان يخلدها الشباب في قلوبهم لتشجيع أنفسهم على النهوض ومقاومة العدو دون تكاسل أو تخاذل حتى لو كلفهم ذلك الموت، وهو ما جاء في عبارة «مت وأنت تقاتل حتى

الرمق الأخير؛ فالموت على أرض الوطن خير لك من موت الكلاب الضالة التى لا مأوى لها ولا منزل».

«لا تخسر العراك مرتين، مرة حزنا على وطنك في حياتك، ومرة أخرى في قبر بلا عنوان، فعلى الأقل اكسب عراكًا واحدًا.. قاتل ومت مدافعا عن الوطن.. ونم مستريح النفس والسريرة، فسيزورك الأهل والعشاق بعد موتك»، تلك كانت جملة دقيقة الوصف محركة للنفس، بني عليها هذا العمل، فأحد الأصدقاء بترت إحدى ساقيه من تفكيك قنبلة للعدو، كما لم يمهله القدر بعدها وقتا كافيا فيموت أيضا مدافعا عن وطنه، وهو ما كان سببا في حزن وانكسار شديد لبقية الأصدقاء، لكن تظل التضحية فداء للوطن هي ضريبة الحب والانتماء.

أما عن بطلة العمل وهي «عافيت»، فقد أضافت للرواية بعدًا نفسيًا كبيرًا؛ فجعلتك تشعر أنك تقرأ رواية رومانسية لا علاقة لها بالبارود أو الحرب، وكأنها الطيف الخفيف الذي نسج من خلاله هذا العمل، لتولد قصة الحب في

المخيم، لتكتمل بعد سنوات من النضال والكفاح على أرض الوطن.

في النهاية هذا العمل وثق صراعًا إنسانيًا ونفسيًا في ظل دفاع مستميت عن الوطن وعن الأرض، ليموت من يموت ويحيا من يحيا في ظل هزائم وانكسارات ليعقبها رفعة وانتصارات.

هاجر تهامي

خوف، قلق، رهبة، صراع، عويل، ألم، شقاء، حزن، بكاء، تلك مشاعر مُركَّبة يخالطها الأمل الذي يسير معهم هربا من ذلك الجحيم الموحش، والذي لا يترك الأخضر واليابس.

خلفهم بلادهم وأمامهم ضباب لا رؤية منه، لكن الأمل والرغبة في النجاة هي سيدة الموقف، وهو خط السير الذي يقودهم حيث الأمكنة الأقرب والمخيمات التي يمكنها أن تخبئهم من نيران الحروب.

وهذا هو المعتاد أن تسقط الصواريخ بعشوائية، يموت من يموت وينجو من ينجو، الأحياء، ربما في ثوان قليلة، أموات، لا أحلام لغد، فغدا بنسبة كبيرة جدا قد لا يأتي.

الأطفال دائما يصرخون، الآباء يهابون المعارك لكن لا عليهم سوى تهدئة أبنائهم واحتضانهم، فربما يكون

العناق الأخير ونجا من نجا، الأطفال يختبئون بين ذراعي الآباء أسفل المنضدة وخلف الجدران، يكتمون أصواتهم، يصمدون، يسكنون إلى أن يناموا، لكن يظل الآباء في حالة يقظة خوفًا عليهم وحزنًا على أوطانهم، ليكون التفكير في الرحيل ومغادرة البلاد أمرًا حتميًا لإنقاذ أنفسهم وأبنائهم.

أن تترك ديارك هذا شعور مؤلم ومهين، لكن قد يكون هجرانًا مؤقتًا خوفًا من أن يهجرك أحد إلى حيث اللاعودة، إلى حيث التراب، فقد تحتمل فراق الوطن لأمل في داخلك بأنك عائد وأن النصر قادم، لكن لايمكن أن يعود الموتى، فالأسلم هو اقتناص ساعات الليل ومغادرة البلاد حتى لا تفقد أحدًا من أهلك أو يفقدك أحدهم.

فقدان مؤقت للمسكن خير من فقدان دائم للأحياء من أهل المسكن.

أصوات الصورايخ شديدة جدًا تؤلم الأذن، وتهدم الجدران، تهز المنازل من شدتها، فلم يكن أمام الآباء سوى أن يضعوا الأرائك فوق بعضها البعض للتقليل من شدة الصوت، وأن يضعوا القطن بداخل أذان أبنائهم حتى تهدأ قلوبهم وتخف الأصوات عن أذانهم.

حالة من الرعب والعذاب النفسي يلاحق الجميع في منازلهم.. رحمتك يا الله، اللهم الطف بقلوب عبادك وارحم صغيرهم وكبيرهم.

لم تعد المنازل آمنة لأصحابها، ولم تعد الأسر الصغيرة تحتمل كل هذا العذاب، فأصبحت كل مجموعة من الجيران يجتمعون في منزل واحد، يتقاسمون الآلام معًا، يأكلون معا، يفكرون في الغد بصوت عالٍ.

وأصبح الأقارب يتخذون من الليل مسارب للهرب والتجمع في منزل واحد لمحاولة الشعور بالطمأنينة المفقودة، والتي لن تأتي إلا بالمواجهة وإزاحة كل الغاشمين من تلك الأرض الطيبة.

اقتراحات من هنا واقتراحات من هناك، فيما سوف يحدث غدًا، فلايمكن أن يظل الغد أسود طوال الوقت.

أحدهم يقترح الانضمام للثوار ومحاربة العدو، وآخرون يجدون أن البداية يجب أن تكون بتأمين النساء والأطفال أولًا والاطمئنان عليهم ووضعهم في مكان آمن ثم التوجه لمحاربة العدو.

قسموا أنفسهم مجموعات، بعضهم يسير برفقة الأطفال والنساء والعجائز لحمايتهم وإرشادهم إلى الطريق، وآخرون ذهبوا إلى معسكرات الثوار لعل النصر يأتيهم بالمشاركة في محاربة هذا الغزو الأثيوبي الغاشم.

تبدأ الرحلات الليلة المخيفة، يبدأ النواح والنحيب على الفقدان، لكن أمل العودة واللقاء القريب يظل يلوح في أفق الأحلام.

لم تكن المسافة سهلة وأنت تغافل عددًا من الأطواف المنتشرة على أرجاء الطريق.

الليل موحش ومخيف، تسير وأنت قد تفاجأ فى أي لحظة بدورية شرطة أو مجموعة استخبارات تصطدم بك فتقع ضحية حظك العاثر.

إنه المجهول يأخذك إلى حيث لا تدرى، ولكن إلى أين المفر؟

المجهول صار رفيق الطريق، صار الرعب الذي يخشاه الكبار قبل الصغار، بينما صار الأمان حلما صعب المنال، فلم يكن يتخيل أحد أن يصل بهم الحال إلى الكر والفر.

كيف بأقدامهم أن تتحمل، لكن الراحة لا تأتي على أقدام خائفة ومتكاسلة.

لكن لا مفر سوى الهرب والفرار على أمل العودة، ليكن الله نعم العون والرفيق.

اللهم أنت الخليفة في الأهل والصاحب في السفر، ذلك كان أكثر دعاء يردده الشباب كلما دق الخوف قلوبهم، ينامون نوم الذئاب اللاهثة، عين مغلقة وأخرى مفتوحة، أحدهم ينام وآخر يرعاهم.

تقترب المجموعة المكونة من محمد وأحمد وإبراهيم و مكئيل وإبراهام من تخوم مدينة تسنى، بعد عناء أسبوعين كاملين سيرًا على الأقدام تارة، واستخدام المواصلات تارة مستفيدين من الخطوط الخارجة عن مراقبة العدو، ومعتمدين على خبرة إبراهيم بحكم عمله في تجارة (البرشوت) ما بين كرن وتسني لسنوات طويلة، بعد أن ضاقت البلد على أهلها نتيجة تصرفات العدو الغاشم بارتكاب عدد من الحماقات بحق الناس كلما أبدت الثورة تقدمًا.

وأصبح الناس يبحثون عن أي مخرج يأخذهم بعيدًا إلى بر الأمان، فقد نزح عدد من الأسر والجماعات إلى بعض دول الجوار محاولين اللحاق بركب الثورة أو تأمين حياة مستقرة محملين الجوانح بأمل العودة إلى أحضان الوطن.

أشخاص اهتدى بهم الحال للذهاب إلى السودان، وآخـرون إلى مصر، وآخـرون استطاعوا الذهاب إلى أوروبـا، كل شخص يفكر على حدة في محاولة إنقاذ

نفسه من الهلاك الذي لحق بالمكان، وإن كان التخطيط في الأغلب يتم على مجموعات حتى ولو صغيرة، ثلاثة أو خمسة أو أكثر أفضل من سير الشخص بمفرده؛ فلقاء المصيبة جماعة يهدئ من وطأتها وفزعتها عن تلقيها بشكل فردي، فحتى في المصائب.. الجماعة أفضل!

إبراهيم يتذكر كرة القدم، وهو في طريقه إلى المخيم، وماذا كانت تفعل به تلك الساحرة المستديرة، ومسيرته مع أصدقائه في تكوين أكثر من فريق في المدرسة بين أكثر من فصل، حتى تشتد المنافسة، بينما أكثر ما كان يسعده هو تهافت الجميع عليه من أجل أن يلعب معهم ضمانا للفوز.

يالله.. متى العودة؟

يااااه يا إبراهيم.. أتطلب العودة وأنت لازالت في بداية الطريق، فأنت حتى لم تصل بعد، ولم تعلم إلى أي الأماكن تتجه.

الكُرَة والأحلام الكبيرة وأمي وأختي.

أمي دائما ماكنت تصرخ في وجهي تحثني على المذاكرة، وأنا أحرض أصدقائي على اللعب، ليت الزمان يعود يومًا.

كل شيء ينقصني، لا طعم لشيء دون أمي.. أمي هي وطنى وأنا بلا أم وبلا وطن.

- اهدأ ياإبراهيم قريبا ستلحق بنا
- آمل ذلك، لكن لا أتوقعه
- ثق بالله.. وادعُ لهم بالنجاة.

تطل تسنى صباحًا في وجوه المجموعة، وها هو إبراهيم يزف البشرى وهو يلوح بكلتا يديه قائلًا:

- ياشباب وصلنا تسنى، وها هو القاش العظيم تصفق أمواجه لقدومنا.

يبتسم مكئيل وهو يرد السؤال لإبراهيم:

- أبو خليل هذا الوادى يشبه وادينا عنسبا..؟

ترحل الذاكرة إلى ضفاف عنسبا والمجموعة بعد لم ترحل بعيدًا، وتحوم حولهم طيوف الأهل والأمنيات وخرير مياه البساتين ورائحة الجداول وتمتلئ المسافة بأشجار البرتقال.

يجيب إبراهيم وهو جالس على واحدة من الصخور العاتية قرب النهر غير مبال بأمواجه وهى تضرب تحت رجليه:

- هذا القاش العظيم ينبع من منطقة (أمباطقرا) فى ضواحى (عرزا) ويشق طريقه بين الأودية والجبال ليستكين هنا فى مدينة تسنى حيث يستفاد من مياهه بصورة كبيرة في ري المشاريع الزراعية الموجودة في هذه المناطق، خصوصًا مشروع (على قدر) المشهور بإنتاج القطن.

يضيف محمد:

- لكنه يواصل الجريان داخل الأراضي السودانية؟

ينهض إبراهيم من على الصخرة ثم يواصل حديثه:

- نعم هذا النهر يصب في الأراضي السودانية، وهناك يسقى مشروع دلتا القاش الزراعي، وهو أحد المشاريع الزراعية الكبيرة في شرق السودان ويهتم أيضًا بزراعة القطن.

يضيف إبراهام:

- لعل اهتمام المشروعين بزراعة القطن ناتج عن إقامة الطليان للمشروعين حسبما سمعت ذلك عن جدي. أتعلمون ماذا اشتهي الآن؟

يقطع محمد الحديث بهذا السؤال:

- ماذا؟

- أجمع القطن من الأراضي الزراعية.

- أعلم يا محمد أنك تحب الزراعة ويملك والدك أراض زراعية.

كنا نملك.. لكن تلك اللعنة انتزعتها وخربوا الأخضر وتحولت إلى جرداء.

لعن الله الغدر والخيبة.

ينتبه إبراهيم فجأة لصوت سيارة قادمة، فيقوم بجمعهم والدخول بهم إلى الغابة القريبة من ضفاف النهر، وهو يقول:

- سوف نبقى هنا طوال النهار، دون أن نثير أي انتباه قد يجلب لنا المتاعب، لنتسلّل بعد الغروب داخل المدينة، وبعدها، الله كريم. في الغابة التى تجهلها وتجهل هى رائحتك ومسامك كم يكون النوم عسيرا؟

تفترش بعض الحشائش اليابسة وتلتحف الأمل الذى يحدوك متفائلا بغد أفضل.

لعن الله الحرب وتجارها والجيش الأثيوبي البغيض (طور سراويت) الذى لايعرف الرحمة مُتهكمًا بشعاراته الرخيصة وسياسات الأرض المحروقة التى يتبعها لتفريغ الأرض من أهلها لينعم بخيراتها.

- تحلم أيها العجوز.

قالها محمد متأوها.

بعدها ابتسم الجميع ليكتشفوا أنهم لا يزالون يغافلون النوم وهو يبتعد عنهم شيئًا فشيًا، رغم الإرهاق الظاهر على تقاطيع وجوههم، وقول محمد يلوح في الأفق بصدى مدوى في الأعماق..

(تحلم أيها العجوز).

الإمبراطور العجوز هيلى سيلاسى الذي عمل بكل ما في وسعه لضم إرتريا إلى جارتها إثيوبيا قسرًا أمام تجاهل العالم والمجتمع الدولي، هو نفس الرجل الذي يحرق ويبيد اليوم القرى دون هوادة أو رحمة، والعالم يكرر نفس فعلته الشنيعة مرة ثانية، وكأن شيئا لم يكن.

نهض إبراهام من على الأرض وقال:

- نكمل ما انقطع من نقاشنا قرب النهر.

يتدخل محمد:

- يجب أن نستريح؛ فالطريق أمامنا طويل.
- ماشاء الله.. إذن أنت تعرف هذه المناطق وطرقاتها جيدًا (يقول مكئيل وقد رجع متكورا فى مضجعه على الأرض)

يجيب محمد متكاسلًا:

- لا معرفة لي بهذه المناطق، ولكن تظل المسافة بعيدة طالما نقصد نحن المجهول.. نحن لا ندرى إلى أين تأخذنا أقدامنا، حتى لو وصلنا السودان لا أظن ستكون محطتنا الأخيرة طالما خلفنا وطنًا مسلوبًا.

يقاطعهم إبراهيم:

- المسافة ليست بالبعيدة مقارنة مع ما مشيناه وعانيناه طيلة الأسبوعين الماضيين، سوف نسير نحن بمحاذاة هذا النهر، وسوف نقطعه في مكان ما، بعدها نكون في مأمن إن شاء الله.

يسأل مكئيل إبراهيم:

- أبو خليل.. طالما نحاذى النهر، لما قطعنا كل هذه المسافة؟! أما كان الأحرى بنا أن نحاذي عنسبا طالما هو أيضًا يصب في السودان؟

- مابك يا حبيبي؟

- عنسبا هو أيضا نهر موسمي ينبع من مرتفعات أسمرا ويمر بكرن ثم يأخذ مسارًا يجعله يقترن بنهر بركة في منطقة (سلعة) ويكونان مجرى واحدًا يدخل الأراضي السودانية بمناطق الساحل الشمالي حتى منطقة طوكر، لكن إضافة إلى المسافة الطويلة والوعرة فهناك أيضًا العدو متربص بالناس دون ما سبب، لذلك سلكنا هذا الطريق الآمن، ونحن بحمد الله نقترب من بر الأمان.

يتدخل إبراهام مقاطعًا:

- الغريب أن أغلب الأنهار الإرترية تصب في السودان، وهذا هو سر الماء في خلق الكثير من الروابط والتداخل

بين الشعوب، حتى المحاصيل نجدها مشتركة. قدرة الماء عجيبة في التواصل لا يعرف حقيقتها إلا الله، تلاحظون ذلك، حتى النهر الوحيد الدائم الجريان في إرتريا يصب هناك.

- أي نهر هذا يا إبراهام..؟

(يسأل أحمد ببراءة)

- (سيتيت) والمعروف في إثيوبيا ب (تكزى) – أى النهر المرعب – وفي السودان ب (عطبرة) وهو أحد روافد نهر النيل.

يهمس أحمد في أذن إبراهام ساخرًا:

- شكرًا على حصة الجغرافيا.

يجيب إبراهام بنفس الهمس والسخرية:

- هذا الثناء يليق بإبراهيم؛ فهو أستاذ جغرافيا وخبير جيولوجيا.

وترتفع عقيرتهما مجلجلة بالضحك، يشاركهم الجميع في الضحك دون أن يعلموا سببًا لذلك..

في مثل هذه الظروف لا تحتاج سببا أو غيره لتضحك، وحدك تفتعل المواقف وتجعلها لطيفة حتى تكسر الرتابة والخوف المرافقين لك أينما ذهبت، لذلك تجدهم يتحينون الفرص ليبقوا ولو قليلا من الفرح جانبهم، ويكذبون على أنفسهم وهم يخفون مراراتهم خلف ابتساماتهم الباهتة، وها هي الشمس تختفى خلف جبال مدينة تسنى معلنة الغروب، والمجموعة تهيئ نفسها لمغامرة جديدة وحلم جديد.

تسنى في الليل بلا كهرباء، الشوارع مظلمة، والناس على عجل من أمرها، الكل يود الوصول إلى بيته قبل الثامنة.

كان إبراهيم يعلم أن العدو قد فرض حظر التجول في المدينة من الثامنة مساء، لذلك كان شديد الحرص على

أن يخرج من تسنى هو ورفاقه قبل أن يحس بهم أحد، لذلك سلك طريقًا بعيدًا عن أعين العساكر والجواسيس قاصدا منطقة (على قدر) كملاذ آمن حتى منتصف الليل، ليواصل السير في ما تبقى من الليل حتى الحدود السودانية.

نجحت المجموعة في تسلل عبر الحدود والعبور بأمان دون أن يشعر بهم أحد.

في مخفر الشرطة الوحيد بالقرية السودانية التى دخلوها، وقف الشرطي وقد جحظت عيناه وهو يسألهم مندهشًا:

- كيف دخلتم القرية؟، ومن دلكم على مخفر الشرطة.. وكيف.. وكيف؟

يجيب إبراهيم بأدب:

- والله وجدنا رعاة يسيرون أمامنا، تبعناهم دون أن يشعروا بنا، وعند دخولنا وسط القرية سألنا عن مخفرها، فدلونا ووصلنا.

سحب الشرطي دفترًا كبيرًا وهو يهز رأسه عجبا، وصار يقيد لكل فرد بيانات خاصة به، وما أن انتهى حتى أشار إليهم بالجلوس في استراحة متواضعة مصنوعة من الأخشاب والقصب، حينها تنفس الجميع الصعداء، وحمدوا الله كثيرا.

القرية صغيرة جدا بحيث يلاحظ أهلها ما يجرى فيها دون أى تعب، والناس تعرف بعضها البعض جيدا لدرجة أنهم يميزون الغريب من أول وهلة. هذا ماتلمسه أحمد عند دخولهم المقهى الوحيد بالقرية لاحتساء الشاي؛ إذ سلم عليهم الرجل صاحب المقهى بحرارة وهو يقول:

- حمدا لله على سلامتكم، كيف الأوضاع فى البلد؟

تعجب أحمد وبنفس التعجب يرد:

- كيف عرفت يا عم أننا غرباء؟

ضحك الرجل وترنح في مكانه ثم قال:

- نحن نعرف حتى الغريب من البهائم، فما بالك بالبشر، عموما لا تشغلوا بالكم كثيرا، سوف تأتي السيارة في الصباح محملة بأغراض المخفر، وسوف تأخذكم إلى أقرب معسكر لاجئين عند عودتها.

لم يعلقوا بشيء عما قاله الرجل، بل شكروه وهم يغادرون المقهى وفي بال كل واحد منهم ألف سؤال.

وكيف لهم أن يعلقوا على هذا الهراء، فكيف لرجل أن يشبه البشر بالبهائم!

لكن ليس أمامهم شيء سوى الصمت على هذه السوقية، فهم غرباء تائهون، ضائعون لا يعلمون شيئا هنا.

كل ما يتمنونه هو الخلاص من هذا الكابوس وإيجاد مأوى لهم، ليفكروا في خطواتهم القادمة.

تمامًا كما قال صاحب المقهى وصلت سيارة لاندروفر في السابعة صباحا محملة بمصاريف المخفر، وقد استعان بهم الشرطي في تفريغ شحنتها، ثم سلم استماراتهم

للسائق وهمس في أذنه ببعض الكلمات، ثم قال موجها كلامه إليهم:

- سوف تقلكم هذه السيارة إلى المعسكر وهناك جهات خاصة سوف تتولى أمركم.
- مع السلامة.

تحركت السيارة تشق طريقها في الفيافي مثيرة خلفها سحابة من الغبار، والمجموعة على متنها تتأمل سحب الغبار و تتندر بما تسلكه السيارة من طريق وما تخفيه الأيام من سعادة وشقاء.

الغبار يحمل معه رائحة المحتل، رائحة الغدر والخيانة، فكيف لهم أن تتحول حياتهم إلى هذا السوء!، وكيف لهم أن يتركوا أحلامهم خلف ظهورهم إلى مستقبل غير معلوم الملامح.

يحمل مكئيل على عاتقيه آلام الفراق عن والده المسكين، فوالده لم يشأ السفر، وأراد أن ينتظر تلك الفترة

على أمل أن يحدث أي تطور من جانب الثوار ويذهب الأثيوبيون من حيث أتوا.

والده يريد أن يموت على أرضه، وليس على أرض غريبة.

دائمًا ما يردد على مسامعه «جئت وحيدا وعشت وحيدا وسأموت وحيدا» مثل أبي ذر الغافري.

هذا العجوز لايعينه أن يفقد حياته؛ فقد تعدى السبعين من عمره، وعلى حد قوله لم يتبق له الكثير، فلماذا يضيع القليل في عذاب السفر ومفاجآت دوريات الشرطة!

هو يكره المجهول رغم إيمانه بالغيب، ويرى أنه أهون عليه انتظار الموت دون الأسر، الصمود دون مهانة.

يبكي مكئيل عندما يتذكر ذلك، لكن تذكر أصوت ترانيم الكنسية يهدأ من خاطره، فيتذكر والده وهو يصحبه معه كل أحد من أجل الصلاة، ويبتسم عندما يتذكر كثير حديثه أثناء الصلاة، ليحثه والده على الصمت فهو في معية

الرب، وعليه أن يقف احترامًا في خشوع وصمت حتى تنتهي الصلاة.

كان مكئيل يحب الذهاب للصلاة للعب في فناء الكنسية مع أصدقائه، وقطف أوراق الفل والخديجة وتوزيعها على بعضهم البعض.. يا الله رائحة المكان تفوح من كل جانب.

- لطفك يالله!

***

حياة جديدة تكلل المجموعة، وبرنامج جديد، ووجوه جديدة وبيوت جديدة، كل شيء هنا طارئ. يتحول اسم المكان لشيء آخر، ويحمل اسما له مضامين أخرى.. إنه معسكر لاجئين.. تغيرت الأسماء والأماكن، وباتت المجموعة موزعة على أرجاء المكان.

إبراهيم مستاء جدًا من الوضع الجديد، يجلس وحده، ولا يخالط الناس كثيرًا، تأخذه الذكرى إلى مراتع الصبا وحياة القرية وطيبة أهلها والمزارع والبساتين، تخنقه

العبرة كلما جلس وحده محاصرا بالذكريات.. القرية الوادعة تشخص أمام ناظريه وهي تحترق، البساتين الخضراء المليئة بالأشجار والأزهار، كيف صارت شيئًا آخر.. كيف تعود الأشجار والأزهار والناس والمواشي إلى سابق عهدها، كيف؟

يخرجه محمد من شروده وهو يصيح بأعلى صوته:

- إبراهيم.. إبراهيم.
- تعال إلى خيمتنا.

يعود إبراهيم مثقل الخطوات يجر خلفه عددًا من الذكريات.

يدخل الخيمة ليجد كل الشباب قد تجمعوا عند خيمة محمد.

أين كنت يا أبا خليل، لقد بحثنا عنك كثيرا؟

يقول مكئيل وهو يجهز إبريق الشاي:

- والله كنت أتجول في المعسكر، الاسم الجديد والبديل لقريتنا.

يتدخل أحمد:

- لا تشغل بالك يا أبا خليل، سنعود بإذن الله.

يجيب إبراهيم وهو بنفس الضيق:

- سنعود إن شاء الله، ولكن أخاف أن يطول الانتظار.

يتدخل مكئيل:

- الثورة تتقدم بوتيرة جيدة، وإذا سارت بهذا النسق فمن المؤكد أننا سنعود قريبًا، سنعود لقرانا وديارنا ونغني ونبني ونعمر إن شاء الله.

يقول أحمد:

كلما دخل الليل هذا المكان الموحش، يطير النوم من عيني وتحاصرني دارنا الصغيرة، أسمع، حتى وأنا نائم، دعوات أمي، وأسمع ضجيج القرية وهى تتجه في

الصباح الباكر إلى المزارع، صوت حوافر الحمير ومن تحمل فوق ظهرها من رجال وهم يرددون أدعية الصباح بصوت مسموع.

أفيق صباحا لأجد نفسي مرميا في هذه الخيمة الكئيبة تحاصرني وجوه الأطفال البائسة والنساء الباكيات، أنا مثلهم أيضا كئيب وباك رغم تظاهري بعكس ذلك، أوهم الناس بضحكاتي العالية ونكاتي التي لا تنتهي، إلا أنني أتآكل من الداخل، أموت كل ليلة في هذا المكان.

يقترح إبراهام:

- يجب أن نشغل أنفسنا بأي شيء، هذا الفراغ الذي نعيشه هو الذي سيدمرنا.

يضيف أحمد:

- نعم. يجب أن نعمل، نفتش عن أي عمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا.

يضيف إبراهيم:

- نحن لم نكمل أسبوعنا الأول في هذا المكان، ولا نعرف أحدًا، ولا ندرى كيف نتصرف.

يقول محمد:

- أنا تعرفت على رجل يمتلك متجرًا صغيرًا. ذات مرة ذهبت لاشتري بعض الأغراض، فتعرف عليَّ من أول وهلة. كان يعرف والدي منذ زمن بعيد، إلا أنه وبدون مقدمات قال لي:

- أرجو إلا أكون مخطئا، هل أنت ابن سليمان هاكين..؟

استغربت كلامه؛ فأنا لم أتوقع أن يتعرف عليَّ أحد في هذا المكان إلا إذا كان من قريتنا.

أجبته بدهشة واضحة:

- نعم يا عم.

- أنا ابن سليمان هاكين، ولكن كيف عرفتني..؟

ابتسم الرجل وقال لي:

من يعرف سليمان لا يمكن أن يخطئك يا بني، كان أبوك رجلًا شهمًا ووفيًا، وكان صديقي الأقرب ونحن شباب، كنا نعمل في مشروع (على قدر) الزراعي لسنوات، بعدها قرر أبوك العودة إلى كرن، وواصلت أنا طريقي للسودان، وعملت لسنوات طويلة في غرب السودان في جمع محصول اللبان، وعندما قررت العودة وجدت أن البلد آلت إلى خراب، وهاجر من بقي على قيد الحياة، وصارت بلدتي قلوج أطلالا تسكنها الوحوش. وعندما سمعت أن عددًا كبيرًا من الناس يعيشون في هذا المعسكر قررت أن أنضم إليهم، فهنا رائحة الناس، وكلامهم وأشواقهم تشبهني، كلنا يابني في انتظار الفرج من الرحمن حتى نعود.

بينما أنا أستمع إليه مشدوها باغتني بسؤال أربكني:

- كيف حال سليمان هاكين..؟

- مات أبي يا عم.

داهمه عسكر (طور سراويت) بالبيت، طوقوا الكوخ الذي كان يتعشى فيه مع رفاقه المناضلين؛ إذ كانوا في مهمة خاصة داخل كرن، لذلك آثروا المكوث بالقرية حتى ينقسم الليل، وقد كانت لأبي رغبة في رؤيتنا، فرحنا كثيرا بقدومه وجهزت أمي العشاء، وضع بارودته جانبا وهو يلاعبنا في الكوخ الآخر، أخذ أبي العشاء وذهب به إلى رفاقه، وبينما هم منهمكون في العشاء داهمهم العسكر وقتلوهم جميعا، كان أحد الجواسيس يتربص بدارنا، هو من أبلغ عنهم، وهو من قادهم حتى دارنا، كان ليلا داميا، لأول مرة أرى فيها موتى وأشلاء، ولا أنسى منظر جدي وهو يلف أبي بثوب وهو يقبله.

تجمهرت القرية بدارنا بعد أن انصرف طور سراويت بعد فعلتهم الشنيعة، وأخذهم لعمي وجدي إلى المعتقل.

دفن أبي ورفاقه في مقابر القرية، وأتم الله أمنيته؛ فقد كان يدعو الله كثيرا: «اللهم لا تبعد قبري عن أهلي».

بكى صاحب المتجر معي، لدرجة أن أحد الزبائن عاد عندما رآنا في هذا المشهد الحزين. من يومها صار صديقي عم فكاك كما عرفني باسمه.

تحولت خيمة محمد إلى مأتم؛ فقد بكوا جميعا لهذا المشهد الحزين، ولعل لكل واحد من بينهم عشرات المشاهد المشابهة، خرجوا من الخيمة وأخذ كل واحد مسلكا مختلفا عن الآخر، بينما ظلت الخيمة مبعثرة وأكواب الشاي في موضعها مليئة تنتظر من يرتشفها.

***

انخرط إبراهيم وأحمد و مكئيل في العمل بإحدى المزارع القريبة من المعسكر، يخرجون كل صباح من المعسكر ولا يعودون إليه إلا في المساء.

بينما وجد محمد إبراهام عملا في أحد مخازن المنظمة التي تشرف على المعسكر.

انقسمت المجموعة بطريقة غير مباشرة إلى مجموعتين، مجموعة المزرعة، ومجموعة مخزن المنظمة، وأصبحت المجموعتين تلتقي ليلا في خيمة محمد يتحدثون أحيانا عن العم فكاك الذي دبر لهم هذه الأعمال، وأحيانا كثيرة ترحل بهم الذاكرة إلى البلد والقرى البعيدة التي جاءوا منها، لم يستطع حتى العمل الذي كانوا يعتقدون أنه سيخفف من وطأة أشواقهم وآلامهم. لكن كل هذا لم يحدث، بل تظل أشواق الأوطان هي الأقوى مهما تجاهلناها بقصد أو بغير قصد.

المعسكر يضج بالناس المسكونة بالعودة، تتزاحم نحوه أفواج من الشاردين من الجحيم، القرى التى تباد بلا رحمة وبلا إنسانية، يضطر من تبقي منها إلى النزوح إلى أي بر آمن، إنه نزوح غير مخطط ومبرمج، نزوح فرضه البارود، ورائحته القذرة، آلاف القرى تزحف نحو السودان، والمعسكر الصغير يضيق بأهله، والهاربون من رائحة

البارود هاهم يموتون بالأفاعي والعقارب والكوليرا، ومن حالفه الحظ بالبقاء يموت محاصرا بأشواقه.

أزيز المدافع تسمع داخل معسكر (ود شريفى) وهو المعسكر الذي عرف لاحقا بهذا الاسم، اسم اكتسبه من قرية تقع بالقرب منه، ولأن ولادته قيصرية كان أيضا اسمه مشتق قصرا من أقرب منطقة واقعة منه.

هنا حيث يوجد اللاجئون، لافرق بين غني وفقير، فالأرض واحدة والظروف واحدة والرؤوس تساوت، ولم يبق فوارق، فمن كان يتصور أن الجميع يتساوى فقط في النهاية عند الموت، صار عليه اليوم أن يراجع معتقده، فلم تعد المساواة فقط في الملاذ الأخير والقبور.. المساواة هنا في المخيم وبين الخيام.

تلك الغارة وهذه الحرب التي جاءت على الأخضر واليابس، جعلت إيجاد مكان للنوم والراحة هو حلم للفقير والغني، أن تجد خيمة ذلك ليس بالأمر اليسير .

لم يعد هناك أحد يعلو أحدا، صار الجميع متساوين في المأساة والمعاناة، ومشاعر مؤلمة ومخيفة تجتاح القلوب.

المعاناة طالت الرؤوس ووصلت الروح للحلقوم، هنا قداس الأحد، وهنا صلاة الجمعة، كل يعبد الله بطريقته الخاصة، اختلفت الأديان لكن تشابهت الدعوات.

الخلاص هو الدعوة الموحدة التي ترددها الألسنة وتطرقها القلوب، الخلاص من هذا الدمار والخراب الذي حلق بهم، والعودة إلى حيث الوطن ومزارع الوطن وخير الوطن.

أما آن الأوان للثأر والعودة من جديد حيث عناق الأحبة وحسن الجوار، أيظل هؤلاء المعذبون يصرخون، لايسمعون شيئا سوى أصواتهم وضجيج أرواحهم حسرة على وطنهم وعلى من فقدوهم معه.

يارب أرح قلوبنا، اللهم ردنا إلى ديارنا.

- آمين.

يدعو أحدهم دون مقدمات، دون خطب رنانه، يدعو دون فصاحة، ينادي في الحاضرين، يصرخ بأعلى صوته، يا الله هل من غيث.. اغثنا ياالله.

- اللهم آمين.

لم يكن هؤلاء المقهورون بحاجة إلى الوقوف في صفوف الصلاة حتى يناشدوا الله الخلاص، لم يكونوا في انتظار صلاة حتى يطلبوا الرحمة والسلام لأنفسهم وأوطانهم، هم في حالة تأهب تام وباب مفتاح للدعوات المستفضية، لايملكون سوى الدعاء، ليصرخ أحدهم رافضا حالة النواح الدائمة، مرددا:

- إلى متى؟ ألا تسمعنا ياالله ؟! أنقذنا ياالله، نحن عبادك الطيبون، خذ بأيدينا ياالله.

ليردد آخر:

- إن الله يقبل الدعوات لكن بالعمل على تنفيذها، فكيف لنا بدعائه ونحن لازلنا في أماكننا، نصرخ وننوح مع النساء والأطفال.

القتال ثم القتال والعودة للبلاد والصمود ثم الصمود للنيل من هؤلاء العداء وتحرير البلاد.

الوطن لن يحرر فقط بالدعاء أو بالصراخ أو البكاء والنواح، فلسنا في زمن المعجزات أو الكرامات.

من يعمل يجد، ومن يسعى يجد، ومن يزرع يحصد، ومن يجاهد لأجل الوطن هو وحده من عليه انتظار النصر والفرج.

الأمراض تهتك بالأجساد، هنا موتى لكن دون عراك ودون حروب، أن كان هناك مقاتلون وثوار يموتون جراء الدفاع عن أوطانهم، فهناك أيضا ثوار يموتون دفاعهم عن أجسادهم.

هنا أجساد أكلها المرض، وقلوب أنهكها الحزن، هنا أمراض لا آخر لها، هنا حروب نفسية وجسدية قادر أن تنهي عمر الإنسان دون رحمة.

ليس الموتى فقط من يموتون في ساحة القتال، هنا أيضا موتى يموتون من الإهمال والفقر والمرض والجوع.

لا دواء، لا طبيب لا منقذ من الأمراض الفتاكة، لا مخرج من لدغات العقارب، هنا تتألم وحيدا وتموت وحيدا، لكن ماأسوأ أن تموت بلا هدف وبلا قضية.

إن كان الموت أمرًا حتميًا لا محالة، فلا مفر سوى أن تموت بشرف، أن تموت وأنت تقاتل وتجاهد لتحمي هذا الوطن.. هناك أشياء كبرى تستحق القتال والموت لأجلها، فاجعل جسدك يأكله الدود بشرف، لتشهد عليك رجلاك وساعداك، إنك مت فدءا للوطن المحبوب، ولم تمت بأسا وقهرا وحزنا على فقدانه.

مت وأنت تقاتل حتى الرمق الأخير، مت على أرض الوطن خير لك من موت الكلاب الضالة التي لا مأوى لها ولا منزل.

إن فشلت في الدفاع عن أرضك وعرضك في حياتك، فأكرم لك أنك حاولت ولم تنجح، وفي النهاية دفنت في موطنك.

فلا تخسر العراك مرتين، مرة حزنا على وطنك في حياتك، ومرة أخرى في قبر بلا عنوان، فعلى الأقل اكسب عراكا واحدا.. قاتل ومت مدافعا عن الوطن.. ونم مستريح النفس والسريرة، فيزورك الأهل والعشاق بعد موتك.

فلا تضيع منزلك مرتين!!

هنا لاأبيض ولا أسود، هنا فقط لون رمادي، وهو لون لايعرف الهوية أو الانتماء، فلا تعلم ما يكنه لك الغد، لا تعلم إلى متى ستظل هنا في خيمتك الوضيعة، وإلى متى عليك أن تصبر حتى يأتي الفرج.

إن انتظر الجميع الفرج فمن المؤكد أنه لن يأتي، الفرج يريد سعاة، وليس أشخاصا مكبلين بالأغلال.

الموت يلاحق واحدا تلو الآخر، فلاشيء يكفي، المتطلبات كثيرة والأعداد في ازدياد، والرياح عاتية لاتصمد أمامها الخيام كثيرا، نساء ينجبن وأطفال يموتون، لا طبيب ولا منقذ، فالأجساد هشة جدا ولا

علاج يكفي للأم ورضيعها والنجاة للصابر، والأطفال لايصبرون ولا ينتظرون.

الموت لايحب الانتظار.. الموت يعشق فجأة، كما قالها محمود درويش في أشعاره، فإلى متى الانتظار؟

كلما انتصرت الثورة، انتقم طور سراويت من الأبرياء وقاموا بحرق أكبر قدر ممكن من القرى، والنتيجة المزيد من النزوح، والمزيد من الظلم.

امرأة جاءها المخاض تصرخ من شدة الألم، لا منقذ، لا أحد يمكنه أن يفعل شيئا، لكن كل النساء فجأة تحولن لطبيبات لممرضات يسعين للإنقاذ.

هيا ادفعي بمولودك، هيا يا امرأة.

الماء الساخن، أسرعن.. هيا.. هيا

الرأس كادت أن تخرج، هيا، ساعدي نفسك.. هيا

تنفسي بعمق، ادفعي.. ادفعيييييي.

الحمدلله.. أخيرا.. خرجت المولودة للحياة، كتب لها أن ترى النور لكن للأسف رآته في مخيم اللاجئين، وليس بين أحضان بلدها الحبيب أو بين ذراع والدها أو أحد أعمامها أو أقاربها.

ولدت الفتاة وحيدة، تصرخ وحيدة بين أحضان غريبة، لكن رحمة الله بها جعلت كل الأيادي الممتدة لاستقبالها كأنها أوطان عوضا عن وطنها، كل القلوب تعلقت بها واحتضنتها حتى قبل أن تحملها، لكن القلب الوحيد الذي لم يحتمل هذا العناق، ولم ينتظر حتى للحظات فارق الحياة!

نعم فارقت الأم الحياة، فلم يحتمل جسدها الهش وقلبها الضعيف كل هذه الآلام، ولم تحتمل عظامها كل هذه البرودة، ولم تصمد أعصابها أمام ذلك العراك الذي دام في بطنها تسعة أشهر، لتموت وحيدة في أرض غريبة، لكنها تنطق بكلمة واحدة:مريم.. مريم.. مريم.

هنا أدركت النساء المحيطات بأن تلك المسكينة كانت تحلم بأن تسمي مولودتها مريم، فظللن يبكين حزنا على وفاتها، وألما على تلك المولودة البائسة التي لا أم لها ولا أب .

- رحمتك ياالله.

ما ذنب هذه المسكينة أن تولد في تلك الأجواء وفي هذه الظروف، تولد يتيمة بلا أم وأب؟! لا أحد يعلم أن كان على قيد الحياة مازال يحارب لتحرير البلاد أم أنه قتل برصاص غادر.. لا أحد يعلم.

تحولت أثـداء الأمهات إلى ينبوع لإرضـاع تلك المسكينة التي لاتتوقف عن الصراخ، ولا أحد يعلم أن كانت تصرخ جوعًا أم ألمًا أم حزنًا على ما يحدث حولها، أو ربما كان صراخها في المحيطين بها لتدعوهم للانتفاضة على ما وصلوا إليه.

الرضيعة تصرخ والناس يبكون؛ وكأن الجميع يبكي حاله ويصرخ على أوضاعه، وكأن تلك المسكينة لاتريد

لهم الارتخاء أو الصمت أو السكينة، طوال الوقت تصرخ لأجل الخلاص، لأجل إثارة حواسهم ومشاعرهم، وكأنها تدعوهم للعودة لأوطانهم، تخبرهم عيونها الصغيرة التي لم تدركهم بعد أن أمامك خيارين إما أن تعيدوني حيث منشأ أمي وأبي أو أن تعيدوني إلى رحم أمي الميتة، لا أريد أن أبقى هنا.. لا أريد.

توالت نساء المخيم على رعاية مريم، ووضعن جدولا للتناوب، فتنام كل ليلة بين أحضان امرأة لعلها تعوضها ولو قليلا من مشاعر العطف والحنان والأمومة.

مريم صارت حديث الجميع، وذكرى أمها لا تفارق أحدا، وطوال الوقت الجميع يسأل: كيف حال مريم؟، هل هي بخير؟ هل لازالت تبكي؟ هل بدأت تأكل أم تكتفي بالرضاعة.

مريم حالة استثنائية، لكنها في الحقيقة حالة عامة، فمن يسأل عن مريم كطفلة هو في الحقيقة يسأل عن حال الوطن.

مريم هى وطنهم أو هي صوتهم وآلامهم المكتومة والمكنونة بداخلهم، مريم جمعتهم كما تجمع الأوطان أصحابها، مريم هي رمز الرحمة والإنسانية، وهي الزرع الذي يجب أن يجنى حصاده على أيدي أصحابه، ولا ينبغي أن يذبل أو يموت.

إن مجرد أن يجوب في خاطرهم فكرة أن مريم قد تموت بسبب ضعفها، أو بسبب الأمراض والأوبئة التي تطال المخيم شيء مرعب ومخيف جدا، ولا يمكن لأحد أن يحتمله، وليس ذلك فقط لكون طفلة قد تموت؛ فموت مريم هو موت الدليل، موت الأمل، موت القدرة على التحمل والصبر من أجل الرجوع لإرتريا الحبيب، كما أنها قد تذكرهم بضعفهم أو بفرارهم من الغدر الأثيوبي الغشيم.

لذلك لا يجب أن تموت مريم على الإطلاق، يجب أن يخرج من هذه الخيام من ينقذها وينقذ هذا الوطن.

تمر الأيام والأشهر وتكبر مريم يوما وراء الآخر، في الوقت الذي تأتي فيه والدة إبراهيم وأخته عافيت.

يكتشف محمد ذات صباح بوجود والدة إبراهيم وأخته عافيت في صفوف طابور المخزن، لم يصدق ما رأى، اقترب منهم وهو يبكي، استقبلته والدة إبراهيم بابتسامتها الصافية وعينيها الدامعتين، احتضنته بشدة وهي تخفي سر موت عمه وجده في المعتقل، لم يرحموا ذلك الكهل المثقل بالجراح، بل أوسعوه ضربا حتى مات من شدة التعذيب، ولم تكتشف القرية هذا الخبر إلا عندما هرب أحد جنود السجن ليلتحق بالثورة، ومن هناك جاء الخبر الأليم.

عافيت اليافعة تخفي جمالا في بؤسها وهي تتخفى خلف ثوب والدتها خجلا، لم تتوقع منظرا كهذا في حياتها، كل تلك العزة والكرامة والمكانة الاجتماعية التي تصنف أهلها من وجهاء القرية. تضيع كل تلك الوجاهة أمام انتهاكات مستعمر بغيض يفتك بالناس ويشتتهم في المجهول.

يسلم محمد على عافيت مشجعا:

- لا تشغلي بالك يا عافيت، سنعود قريبا، الثورة تنتصر.

تسأل أم إبراهيم في خجل:

- ماذا عن إبراهيم..؟

إبراهيم هنا معنا، جئنا في رحلة طويلة أنا وهو وأحمد و مكئيل وإبراهام.

تجيب بفرح غامر:

- أين هو؟ أين إبراهيم..؟

يعمل في مزرعة قريبة مع أحمد و مكئيل ، سيعودون في المساء إن شاء الله.

تسأل أم إبراهيم بانشغال:

- أخاف من قولك، وكأنك تخفى سرا.

- لا سر ولا غيره.

- لا تنشغلي سيعودون في المساء.

تردد أم إبراهيم:

- اللهم أريني خيرا.

وهى تدخل المخزن بعد أن سمعت الموظف ينادى اسمها.

***

في المساء تحولت خيمة محمد إلى مكان تغمره الفرحة. تحلق الشباب حول أم إبراهيم وعافيت. ولأول مرة يشعرون بدفء في هذا المكان الغريب.

أم إبراهيم تحكي لهم ما لحق بالبلد من دمار، وما وصلت إليه الأمور في القرى المحيطة بكرن. وكيف أن المستعمر أزال كل الغطاء النباتي حول القرى وجعلها جرداء بحجة أن الثوار يتخفون داخل هذه الأغطية النباتية. وصارت الكثير من القرى بلا أشجار. وأن طور سراويت يهاجمون هذه القرى بسبب وبلا سبب بطريقة استفزازية، إلى أن وصل بهم الغرور إلى إبادة

قرى بكاملها، الكثير من القرى الواقعة على مسافة قريبة منا تم إزالتها تماما، لم يتركوا حتى الأطفال والرضع، وأنزلوا بالناس عقابا فوق طاقتهم. لذلك قررنا الفرار على أن نبقى ونواجه نفس المصير، وتشتت قريتنا كيفما فر كل واحد فيها.

بعد شهر كامل من السير على الأقدام وصلنا إلى هنا، كنا نمشي ليلا ونختفي في النهار، كنا حوالي عشرين شخصا، وكان من بيننا اثنان فقط ممن يعرفون الطريق، ولأن أغلب القافلة كانت من النساء استغرق المشي كل هذا الوقت، نحمد الله كثيرا بوصولنا إلى هنا بسلام، تربت أم إبراهيم على ظهر عافيت وهي تقول:

- لم تتحمل عافيت المشي في بداية الأمر، وتورمت رجلاها، ولكن ماذا تفعل، إنه أمر لا بد منه تعودت غصبا عنها، حتى الألم يمكن التعود عليه في الحالات الاضطرارية.

تلك الظروف الاضطرارية، والتي جعلت عافيت تتحمل كل الصعاب والآلام، بالإضافة إلى آلام القدم بسبب كثيرة السير، وآلامها المعتادة بسبب القولون العصبي والـذي طالما هاجمها منذ الصغر، تلك المسكينة تعيش على المسكنات، فلايمكنها أن تأكل بسهولة مايروق لها بسبب معدتها، إضافة إلى أن ما وجدناه طوال ذلك الشهر من الخوف والفزع مخافة أن يتبعنا أحد كان سببا في إثارة قولونها العصبي الذي جعلها لا تتوقف عن الألم.

لكن كل ألم يمكن أن يطاق على أمل حدوث خير يروق للجميع.. النجاة مفتاح صبر الفارين وتحملهم لكل الأوجاع والآلام.

انتهت جلسة القهوة بخيمة محمد وهم الجميع بالانصراف، إبراهيم يحمل أمه وأخته ويودع المجموعة، بينما محمد تأخذه رائحة خيمته هذه المرة إلى أماكن بعيدة.

الأماكن التي تسكن أعماقنا ولا تفارقنا مهما ابتعدنا، مراتع الصبا، الألعاب القديمة والأمنيات البعيدة، والليالي الطويلة التي لا تنطوي مهما تغافلت عنها، ومهما أغلقت عينيك عنها، محمد يتقلب في مضجعه، وتحوم حوله الذكرى في شوارع القرية، وصوت أم إبراهيم يرن في أذنيه بعدد من الأسئلة.

***

عافيت شيئًا فشيئًا تتعود على المكان، لكن الكثيرين لم يتعودوا على جمالها، جمال طاغي يزداد في كل يوم بريقا يجهر عين كل من تصادفه.

محمد يتردد على عافيت كثيرا بحكم وجوده داخل المعسكر بصورة دائمة، يحاول في كل مرة أن يمد لها يد المساعدة في مكان تنقصه الكثير من مقومات الحياة، يتودد إليها دون أن يظهر لها مشاعره وعواطفه تجاهها، ولكن عين العاشق لا تخفي كل تلك المشاعر من الحب، فيفيض من أطرافها ويفضح سيلها ما تحاول أن تخفيه.

الحب يولد في أي مكان، حتى في هذا المكان البائس، والحياة الطارئة فيه والمآسي التي تحاصره.

محمد يخفى حبه، وعيناه تفضحان ما يخفيه. والمعسكر تكبر رقعته والخيام تنتشر وتطول، والقرى المظلومة تزحف كالسيل، والوجوه تتشابه في القهر والظلم والرحيل إلى المجهول.

محمد وإبراهام يتعرفان كل صباح على أشكال جديدة من الناس بحكم عملهم. اللغات عديدة والأزياء متنوعة والمشكلة واحدة، الهروب من البارود.

لكن تظل عافيت تشغل عقل محمد وتفكيره، لكن يبدو أن هناك شيئا تخفيه عافيت يجعلها شاردة طوال الوقت، فهل ذلك بسبب ماوصل إليه حال البلاد فتراودها أحلام اليقظة بالعودة مجددا والنوم على أصوات الموسيقى بدلا من أصوات الصواريخ وطلقات الرصاص.

لا يعلم محمد ماذا أصاب هذه المسكينة، ولا يريد أن يسألها حتى لا تكون هناك أسباب خاصة قد يسبب لها

الإحراج تخشى البوح بها.. لكن هل كل ذلك بسبب فزعة الحروب وطول الطريق؟

يحاول محمد بشكل غير مباشر أن يسأل إبراهيم عن السبب الذي جعل عافيت تبدو حزينة طوال الوقت، رغم مرور أيام على وجودها في المخيم، وابتعادها عن أماكن الصراع والألم.

لكن لم يستطع الوصول إلى سبب حقيقي ومحدد، فإبراهيم قد جاء معه هو وبقية الأصدقاء، ولا يعلم أي شيء، كما أن أكثر ما يشغله هو ما يحدث في البلاد، ويحلم بالليلة التي تشرق فيها شمس الحرية، ويترك الخيمة التي لم يعد يتحملها أكثر من ذلك.

لايهدأ محمد حتى يعرف السبب وراء حزن هذا الجمال، فيستغل خروج عافيت لملء المياه، فيسرع إلى خيمة أم إبراهيم ليتحدث إليها بشكل مباشر، فهو يعلم حبها له وتقديرها لكل أصدقاء ابنها إبراهيم، فهم لها مثل أبنائها.

- هل لي أن أسالك سؤال قد يبدو غريبا؟

- أهلا يامحمد، بالطبع، ماذا تريد؟

- تعلمين أنك مثل والدتي وأن عافيت مثل أختي.

- نعم أعلم ذلك، وأنتم مثل أبنائي.

- ياخالتي ماذا حدث لعافيت؟، أشعر أنها تغيرت كثيرا، وتبدو حزينة طوال الوقت، أعلم أن ما مرت به طوال الطريق يجعلها بائسة، وما مررتم به قبل رحلة العذاب ليس بالأمر الهين، لكنني ظننت أنه بمرور الأيام ستتغير للأفضل، وتهدأ قليلا.

- معك حق يامحمد.

- عافيت رأت مالايمكن أن تتخيل رؤيته، ومأأصابها من شرود ليس فقط بسبب الحرب أو طول الطريق، أو ألم القدم والقولون، بل بما وجدناه في رحلة العذاب.

- إنه ألم القلب يامحمد، الله لا يكتبه على أحد.

يشرد محمد ويحمر وجهه، والأفكار تتضارب في عقله، ماذا تعني بألم القلب؟، فلم أسمع يوما أنها مصابة بألم في القلب، من المؤكد أنها خرجت لتوها من قصة حب مؤلمة، أو غدر بقلبها الضعيف أحد الشباب المتهورون وغير المسئولين.. إذن عافيت كانت تحب!

الحسرة تملأ قلبه حزنا على حاله وحزنا عليها.

كل تلك الأفكار جاءته مسرعة في ثوان معدودة، ليجد صوت أم إبراهيم تناديه: محمد.. يامحمد.. يامحمد يا ابني؟.. إلى أين شردت؟

- لاشيء ياخالة.. لاشيء.
- أخبريني لماذا يتألم قلبها؟
- أثناء سيرنا، كنا برفقة بعض النسوة والأطفال، وبعض من أقاربنا، وكانت مرتبطة بابنة عمها خديجة التي تبلغ من العمر ثلاث سنوات، وكانت برفقتنا خلال رحلتنا التي استمرت قرابة الشهر.

- لكني لم أجدها معكم، أم ربما تكون في خيمة أخرى أو في المعسكر المجاور.

- لا يا محمد هي لم تصل من الأســاس، لا هي ولا والدتها.

- لماذا؟

كانت خديجة الصغيرة تعاني من التهاب رئوي حاد، قبل قرارنا بالرحيل ليلا، ولم يكن أمامنا مفر سوى أن نخرج معًا، فربما نسرق ساعات الليل لننجو بأنفسنا من هذه الحرب، لكن تقلبات الجو، ومشقة الطريق، ونوبات الألم تزداد على تلك المسكينة، والتي لم تستطع الصمود مع إصابتها بالجفاف، فرحلت إلى حيث مثواها الأخير.

- ماتت؟!

- نعم يابني ماتت على أرض غريبة، ماتت قبل أن نصل، ولم نكن نعرف ماذا نفعل، هل نعود إلى الدمار والخراب، أم نكمل طريقنا، فكنا في منتصف الطريق.

الحسرة كست قلوبنا والحزن طغى على أجسادنا، وعجزت ألسنتنا عن الحديث، عن حتى المواساة.

- لطفك يالله.

- وماذا حدث ياخالة؟

أحد الرجال الذي كان بصحبتنا أكد علينا ضرورة الدفن في الحال، فإكرام الميت دفنه كما تعلم، لكني لا أتذكر تحديدا المكان الذي دفنت فيه، لكن ذلك كان دونا عن رغبة الأم التي لا تتوقف عن العويل والصراخ، فخديجة ابنتها الوحيدة التي أكرمها الله بها بعد سبع سنوات من الزواج.

لم تترك أم خديجة طبيبًا أو عرافًا راجية الله العوض والخلف الصالح، ليرزقها الله بهذه الطفلة، والتي لم يكتب لها النجاة.

حزن خيم على الأمكنة، وقلوب أكلتها الحسرة على تلك المسكينة التي رفضت استكمال الطريق معنا لتظل جالسة حيث دفنت ابنتها.

فشلت كل محاولات إقناعها بالمجيء إلى المخيم، لكنها لا تسمع ولا ترى، فقط تنثر التراب على قبر ابنتها، تتحدث إليها، ترجوها الاستيقاظ.

كان من الصعب علينا أن نتركها؛ فقلوبنا تدمي حزنا عليها، لكن ليس بالأيدي شيئا.

انتظرنا ثلاثة أيام بجوار قبر خديجة نهدئ من أمها، نأخذ بيديها، نحاول أن نطيب جراحها وآلامها، نقرأ على مسامعها بعضا من الآيات القرآنية، فتصمت قليلا، لكن سرعان ما تفيق من غفلتها لتصرخ منادية على خديجة.

الأيام تمر، وخوفنا من اكتشاف أمرنا ومن الدوريات التي تمر ليلا، حتم علينا أن نرحل لنستكمل طريقنا، وعزمنا أمرنا على الرحيل متبعين كل السبل لاصطحاب تلك الأم المكلومة، لكنها رفضت بكل قوة متشبثة بتراب ابنتها.

تركنا لها بعض الطعام والماء، واضطررنا للرحيل لكن بقيت معها عمتها، تلك السيدة العجوز التي أصرت أن مكانها السليم هو بجوار خديجة وأمها.

فكيف لها أن تتركها وحيدة، لا تعلم ما قد يحدث لها.

لاشيء متوقع في ظل تلك الظروف، وبقاء اثنين أفضل من امرأة واحدة بمفردها، لعل أم الطفلة قلبها يهدأ بعد فترة، وتستطيع الأحداث والأيام أن تنسيها فاجعة الموت فتستكمل سفرها للحاق بالقافلة، أم ربما سوء الأحداث وعواقب الحروب تجعلها توقن أن موت خديجة كان أفضل اختيار فضله الله لها للنجاة من ويلات وتبعات الحرب.

فربما اعتدى عليها أحدهم، أو ربما ضاعت وسط الزحام، أو ربما أخذت ضمن الأسرى، وفرق الجنود بينها وبين والدتها.. ففي تلك الحالات الموت هو الأفضل على الإطلاق.

الله قادر على إرسال السكينة في القلوب، من أرسل البلاء قادر على رفعه.

هذه هي كل الحكاية يامحمد، وهذا هو ما يؤلم قلب عافيت، تلك الصغيرة التي لم تكمل بعد الخامسة عشرة من عمرها تتعرض لهذه الألم القاسي، فآه لو تعلم يامحمد حب عافيت لخديجة وارتباطها بها.

خديجة كانت الروح الجميلة والأسئلة العفوية.. خديجة كانت الأمل والسعادة لأرواحنا الهشة على مدار أسبوعين قبل أن تفارقنا إلى الأبد في منتصف الطريق.

لم تكن خديجة بالنسبة لعافيت مجرد فرد من أقاربها أو مجرد طفلة جميلة تلهو معها أو تحملها كثيرا حتى تقلل عنها ألم الطريق، فهي لازلت طفلة تمشي قليلا وتُحمل كثيرا.

كانت قلبها الصغير الذي يسير ويلهو، كانت بمثابة أمها، فكل فرد مسئول عن أخيه، الكبير يعطف على الصغير،

والصغير يحمل عن الكبير، وكانت عافيت أما لخديجة، حبيبتها ورفيقتها، لا تنمو إلا وهي بين ذراعيها، وليس بين ذراع والدتها، تنتظر استيقاظها لتبدأ حياتها.

أحلام صغيرة بآمال كبيرة رسمتها عافيت لها ولخديجة، لكن القدر أبى أن يسير الطريق بهذا النهج، فكان له حسابات أخرى، ليخطف تلك الصغيرة، ويخطف جمال عافيت ليسود الحزن قلبها وعلى وجهها.. فماتت رفيقتها، كيف لها أن تبتسم!

لنا الله!

كل ما تحمله الأقدار خير.. والخير يكمن فيما نظنه شرا.

يالله يا عافيت.. هل تعاني إلى هذا الحد؟، كيف لقلبك أن يصمد؟

يقبل محمد رأس والدة إبراهيم ويستأذنها بالخروج من خيمتها، فقد جاءت عافيت، ولا يجب أن تعرف أن محمد

عرف ما حل بها، فهي لا تريد أن تتذكر ذلك الأمر، ولا تريد أن يحدثها فيه أحد، وهذا هو ما أكدت عليه والدة إبراهيم لمحمد حتى لا تعود ابنتها إلى حالة الحزن الشديدة أو تعاودها آلام القولون مرة أخرى.

يعدها محمد بذلك، ويذهب حيث إلى خيمته، لايلقي السلام على أحد، يعود شارد الذهن، محملا بأعباء وأثقال تطبق على صدره، يريد أن يبكي، أن يصرخ، لايرى أحدا عند عودته لخيمته.

ينادي عليه عم فكاك.. لايسمع، يتساءل: لماذا لا يرد محمد؟ هل عجز عن سماعي؟ هل يشغله شيء.

نعم نعم هو مهموم بأمر الوطن ويرغب العودة سريعًا.. لا أحد يحتمل الحياة هنا، هكذا يجيب عم نفسه.

محمد الآن وحيد داخل خيمته، يمسك بوسادة ليضعها على فمه حتى لاتخرج آهاته وصرخاته حزنا على وفاة

خديجة ، وحزنا على قلب حبيبته عافيت التي يعلم جيدا أنها تتألم كثيرا.

فجأه يصمت محمد للحظة، يتوقف عن البكاء، حضرت فكرة في خاطره.

نعم هذا هو الحل.. نعم.. نعم.. محمد جاءه الحل في لحظة.

الآن عرف كيف يخرج عافيت مما هي فيه، لكن كيف؟

محمد لم يخبر أحدا بما يفكر فيه، بل حتى لا يعلم إن كان إبراهيم الأخ الأكبر لعافيت يعلم ماحدث لأخته خلال رحلتها في الطريق.

لم يعد يشغله كل ذلك.. هو فقط مشغول بقلب عافيت.. يفكر في الخطوات التي يغسل بها آلام تلك المسكينة.

يغسل وجهه، يخرج من خيمته يتوجه إلى أحد الخيام، يظل فيها أكثر من ساعتين، يبحث عنه إبراهيم وإبراهام ولا يجدانه.

أين ذهب هذا الفتى؟

لا أحد يعلم.

يذهب إبراهيم لخيمة والدته وأخته يسأل أمه:

- هل رأيت محمد اليوم؟

تجيب عافية مسرعة دون أن تنتظر إجابة والدتها:

- نعم محمد كان هنا يتحدث مع أمك.
- خير يا أمي؟ هل كان يريد شيئا؟
- لا يا بني.

كان يريد أن يسأل عن أخبار أقاربه، وهل هناك أية أخبار عن المخيمات الأخرى التي ذهبوا إليها، ومن تبقى منهم في البلاد.

- هل أخبرته بشيء يزعجه؟
- لا يابني فهو قد علم بمعظم الأخبار منذ مجيئنا ولا جديد، هل هناك شيء؟

- لا يا أمي فقط لم أجده في الخيمة ولا أعلم أين ذهب؟
- لا تقلق يابني.. خيرا إن شاء الله تعالى.

يظهر محمد ويعود للخيمة، فيسأله إبراهيم عن سبب اختفائه، وأين ذهب، فيجيبه:

- كنت أعيد الحياة إلى مسارها الطبيعي.
- مسار!.. أي مسار تتحدث عنه يامحمد؟
- قريبا ستعرف.
- وأنا أريد أن أعرف الآن، إياك أن تفكر في شيء وتنفذه دون علمنا.
- لاتقلق يا إبراهيم.. لن أترك هذا المخيم وحيدا.. سنعود جميعا للوطن سالمين بإذن الله.

الأيام تمر جميعها يشبه بعضها البعض، لانوم ولا استيقاظ، حالة من الرتابة والملل والضيق من بقاء الأوضاع على حالها دون خطوة محمودة تذكر، أو بارقة أمل تلوح في الأفق تنبيء بقرب العودة إلى إريتريا.

الشيء الوحيد الجديد الذي يحدث هو محاولة محمد أن يزج بعافيت في كل أمور المخيم، أن يشغلها ببعض المهام، أن يقص عليها وعلى والدة إبراهيم العديد من القصص، والتي على رأسها قصة مريم التي عاصرها محمد وباقي زملائه، فيسرد لهم تفاصيل ولادتها المتعثرة، وكيف خيم الحزن على المخيم، فصار الألم ألمين، وزاد الشقاء والحزن الذي طغى على قلوب كل الوافدين إلى هذا المكان الذي شهد وفاة الأم وبقاء الفتاة الرضيعة وحيدة تصرخ لولا أن نساء المخيم جعلوا من أنفسهن أمهات لها، وصارت رعايتها بالتناوب.

تتأثر عافيت بما تسمع، فتسيل الدموع على وجنتيها حزنا وألما على ماتسمع، لكن رغم مرارة حالتها إلا أن محمد ظل صامدًا متماسكًا لم يتأثر بشيء عندما حكي، وذلك أمر غريب، ولايمكن أن يكون حال محمد، وظل ذلك سؤالا يشغل بال الجميع، خاصة وأنه شخص مرهف المشاعر والأحاسيس.

تمر الأيام ومحمد يختفي ساعتين يوميا دون أن يخبر أحدا أين ذهب، ليأتي في أحد الأيام حاملًا رضيعًا بين ذراعيه، ليفاجيء الجميع بها متسائلين:

- من هذا الرضيع يامحمد؟
- رضيعة وليس رضيع.
- لمن؟
- هي لمن يريد؟
- ماذا تقصد؟
- من يريدها أن تكون له فهي له.
- لا أحد يفهم شيئا
- هي للبيع أم للتبني؟
- ليس هذا ولا ذاك.
- هي للمحبة للسلام، لمن يرغب في الحياة.
- اجلسوا جميعا، واستريحوا، وسأشرح لكم الأمر.

- هذه ابنة المخيم، ابنة الظروف، ابنة الألم، ابنة اليتم، ابنة الوحدة، ابنة الحرب.

مريم، هكذا أجابت عافيت دون أن يكمل محمد حديثه..

- هي مريم يامحمد.

ابتسم محمد والسعادة تغمر وجهه:

- نعم هي مريم.
- كيف عرفتِ ياعافيت؟
- كل الأوصاف التي ذكرتها تنطبق عليها.
- هل فقط الأوصاف أم الإحساس؟

هكذا رد عليها محمد.

- الاثنان يامحمد!
- إذا وما رأيك؟
- في ماذا؟

- في مريم.
- ماذا تقصد؟
- هل تريدها؟

تقطع أم محمد الحديث لتخبره:

- كيف يابني هذه مسئولية والطفلة في حاجة لرعاية، وعافيت لازالت صغيرة وبحاجة لمن يرعاها.

تتدخل عافيت وتقاطع والدتها:

- لا ياأمي هي لي.
- كيف ياعافيت؟.. الطفلة مسئولية تحتاج إلى من يرعاها ويتولى مسئوليتها، ونحن في ظرف استثنائي، وفي حرب يا ابنتي، ولا نعرف ماينتظرنا غد!
- يا أمي من ينتظرنا ينتظرها، سنلقى جميعا نفس المصير، حياتنا حياتها، ومالنا لها.

لاتقتنع الأم بكلام ابنتها، وتصر على إقناعها بالعدول عن رغبتها، كما تلقي اللوم على محمد بعدم استشارتها

مسبقا قبل الحديث مباشرة عن هذا الأمر أمام عافيت والجميع.

يصمت الجميع ويخترق بكاء مريم الصمت التي خيم المكان، لتشير أم إبراهيم بيدها لمحمد:

- أعطني البنت يابني.

تحملها الأم وتهدهدها وتأخذها بين ذراعيها تارة ورأسها على كتفها تارة أخرى، حتى تتوقف عن البكاء، ثم طلبت من عافيت أن تعد لها مشروب الليمون الدافئ، حتى تدخل الطفلة في سكينة وهدوء تام.

تحاول عافيت أن تلمس الفتاة، لتعطيها لها والدتها لتحملها عنها.

- خديجة ياامي!

تربت أم عافيت على كتفها، فهي تعلم ما تتذكره ابنتها في تلك اللحظة والمأساة التي مرت بها منذ موت خديجة.

تبتسم عافيت وتعود الدماء لوجهها مرة أخرى، وكأن الحياة عادت إليها من جديد.

هنا يشعر محمد بأنه استطاع أن يقدم شيئا لحبيبته عافيت، لتكون عوضا لها عن خديجة التي فقدتها في رحلتها من إريتريا للمخيم.

عافيت تظن أن كل ذلك كان عفوي وأن القدر ساق لها تلك اليتيمة لتكون عوضا عن خديجة، ولا تعلم أن ذلك كان بتخطيط مسبق من محمد بعد توفيق الله.

اختفاء محمد لم يكن هباءً، بل كان يرتب لهذا اللقاء، يرتب للحصول على مريم لتكون شريكة عافيت ليستكملا معا حياتهما، فتشعر عافيت بأنها لم تعد وحيدة، وأن الحياة يجب أن تستمر؛ فهناك أشياء على هذه الأرض مازالت يستحق الحياة لأجلها.

رحيل خديجة لم يكن أمرًا هينًا على قلبها، فجاءت مريم لتكون خديجة حياتها من جديد ورائحتها العطرة التي تستحق الكفاح والنضال من أجلها.

محمد استطاع إقناع نساء المخيم اللاتي يتولين رعاية مريم أن يتركوا الجزء الأكبر من المسئولية على عافيت، بعد أن حكى لهم ما رأته تلك المسكينة ليكون قربها من مريم علاجا لها ورأفة باليتيمة التي يجب أن تستقر مع فرد واحد، حتى يمكنها أن تحظى بتربية محددة المعالم، وبأم واحدة بدلا من أمهات كثيرات.

في النهاية كل لديه ما يشغله، لكن عافيت ليس لها ما يشغلها سوى الخوف من الغد وحالات الفزع التي تأتيها كلما تذكرت خديجة، بالإضافة إلى نوبات القولون العصبي التي تهاجمها من يوم لآخر.

هنا تبدأ حياة جديدة بهاتين الطفلتين اللتين كانتا عوضا لبعضها البعض، لتبدأ رحلة البحث عن الذات وعن الوطن، فالأيادي الملتصقة المتحابة والمتكاتفة تملك سحر الآمال والأحلام الجماعية المشروعة.

***

في المزرعة قرر إبراهيم و مكئيل وأحمد الالتحاق بالثورة. قرار جاء فجأة دون مقدمات.

قال أحمد:

- عندما ينتصف النهار سينام صاحب المزرعة قيلولته، حينها سننسحب من هنا ونأخذ طريقا يأخذنا إلى كسلا.

يسأل مكئيل:

- لماذا كسلا..؟

- في مدينة كسلا مكاتب الثورة، سنلتحق من هناك، وهم يدبرون لنا طريقا إلى الميدان.

ثم يضيف إبراهيم:

- إلى متى سنعمل في هذه المزرعة وقرانا تباد، والمعسكر يضيق بالنساء والأطفال. لا بد أن نثأر لكل ما سلبوه منا وجعلونا هكذا بلا مأوى ولا وطن.

يتدخل أحمد:

- وماذا عن محمد وإبراهام..؟

يجيب إبراهيم:

- الرجوع إلى المعسكر يعني الرجوع إلى الـوراء، سيلحقون بنا مجرد سماعهم بالخبر، أنا لا استطيع أن أرى دموع أمي وهى تودعني.

يجب أن نغادر كسبا للوقت، فأنا أسمع شخير صاحب المزرعة.

تنطلق المجموعة في الهجير تطوي المسافة لأجل الوطن المسلوب، قبل الغروب تطل مدينة كسلا بجبالها الشامخة، ويعلق مكئيل:

- هذا الجبل يذكرني ب (لالمبا) و (سنكيت).

يجيب أحمد:

أين لالمبا وسنكيت يا مكئيل ؟، نحن نرحل بعيدا، وكل صباح تطول غربتنا وتطول المسافة عن لالمبا،

هذان الجبلان توتيل ومكرام حسب ما أسمع، لكني لاأستطيع أن أحدد أي منهما توتيل وأيهما مكرام، عموما نحن داخل كسلا.

***

في المساء شعر محمد وإبراهام بعدم وجود أحمد و مكئيل ، لم يتركا مكانا في المعسكر إلا وسألا عنهما.

أم إبراهيم هي الأخرى منشغلة، جالسة على سجادتها تدعو الله بعودة أبنائها، عافيت قابعة في ركن الخيمة وعيناها قد تورمتا بالبكاء.

دخل محمد الخيمة وهو يقول:

- ما من مكان إلا ووصلنا إليه في هذا المعسكر، لا تنشغلي يا أم إبراهيم، من المؤكد أنهم باتوا في المزرعة، في الصباح سوف أذهب بنفسي لأتحرى الموضوع.

تجيب أم إبراهيم في حيرة:

- هم لم يتعودوا المبيت خارج المعسكر، لم أتذكر ذلك خلال وجودنا هنا.

يجيب محمد:

- لا تنشغلي، فقد ذهب إبراهيم لمكان قريب، هناك بعض أصدقائنا علهم معهم.

تتمتم أم إبراهيم:

- دائما المصائب تطاردنا، أين ذهب هؤلاء الأولاد.

في الصباح استأذن محمد من المسئول وتوجه نحو المزرعة، باتت تراوده الشكوك وهو في الطريق:

- ترى ماذا جرى لهم؟ هل غدر بهم صاحب المزرعة؟ لاأظن ذلك؛ فعم فكاك يعرف صاحب المزرعة جيدا ولا أظن أن يؤذيهم مهما حصل، وهو أيضا رجل شهم ومتعاطف معنا، بحكم الظروف التى نعيشها.

وصل محمد المزرعة وعدد من الأسئلة تدور في رأسه، وجد صاحب المزرعة منهمكا في عمله ولم يشعر حتى بوجوده داخل المزرعة.

- السلام عليكم .

يجيبه محمد بصوت عال:

- وعليكم السلام .

يخرج الرجل من بين المزروعات والعرق يتقاطر من جبينه

يقول محمد:

- أسأل أخوة لي يعملون هنا معك في هذه المزرعة.
- نعم يا بني. أنت تسأل عن إبراهيم وأحمد و مكئيل على ما أظن.
- نعم يا عم.
- هم يعملون هنا، وفي المساء يعودون إلى المعسكر، لكن بالأمس لم يرجعوا بعد نهاية ساعات العمل. انشغلنا عليهم، هذا هو سبب وجودي هنا.

عدَّل الرجل من وقفته وهو يقول:

- بعد صلاة الظهر دائما ما أستريح قليلا، وكالعادة استيقظت من النوم لأجد هؤلاء الشباب غير موجودين في المزرعة، فتشت المكان جيدا؛ لأننا بعد الاستراحة نتناول وجبة الغداء معا ثم نزاول العمل من جديد.

كنت أعتقد أنهم رجعوا إلى المعسكر، وكنت في انتظارهم صباحا.

عموما هم غير موجودين هنا.

- شكرا يا عم، سوف أبحث عنهم في مكان آخر.
- أرجو أن تفيدني إذا وجدت أي معلومة عنهم.
- أنا أيضا سوف اهتم بالموضوع.
- بالتوفيق يا بني.

عندما رجع محمد إلى المعسكر وجد إبراهام قد استقبل رسالة معنونة باسم محمد سليمان هاكين.

يسأل إبراهام:

- ما الخبر..؟

- ذهبت إلى المزرعة وهم غير موجودين هناك، الرجل يقول: إنهم غادروا المزرعة نهارا، حتى لم يستنأذنوه ولم يخبروه.

فض محمد الرسالة فإذا هي من إبراهيم، يصيح بأعلى صوته في إبراهيم رغم وجوده بالقرب منه:

- إنها رسالة من إبراهيم.

- دعك من هذا الصياح أقرأ ما بداخلها؟

يبكى محمد بصوت مسموع وهو يقرأ الرسالة، مما جعل إبراهام ينزعج، وهو لا يدرى ما الذي يجري.

بعد صمت يجيب محمد:

- لقد ذهبوا إلى الثورة.

يجيب إبراهام:

- وما الذي يبكيك، خيرا فعلوا، فقط كانوا يخبروننا بذلك.

- هذا هو الذي يبكيني، كان يجب أن يخبرونا، وأنا أولى بالثورة منهم جميعا، كان يجب أن نذهب معهم.

- أنا يا إبراهام من قتل العدو أبي أمام أعيننا، وخبأوا عمي وجدي إلى اليوم في مكان غير معلوم.

- أنا من تحتاجه الثورة ليثأر لأبيه وعمه وجده وكل الشعب المظلوم.

صمت إبراهام قليلا ثم قال:

- كلنا تحتاجنا الثورة يا محمد.

- ذات مرة يا محمد خرجت أنا وأخي دبساي لنرعى الأغنام، ذهبت بنا الأغنام إلى مسافة بعيدة دون أن نشعر، وعندما عدنا في المساء لم نجد أحدا في القرية، فقد أخذهم العدو إلى واد سحيق وهناك تمت

تصفيتهم جميعا، أنا ودبساي فقط من نجا من هذا الموت الجماعي.

احتضن محمد إبراهام وبكيا معًا بشدة، وبعد صمت طويل قررا الذهاب إلى أم إبراهيم ليبلغاها الخبر.

في البداية صمتت أم إبراهيم قليلا ثم قالت:

- خيرا فعلوا، يحفظهم الله .

أما عافيت لم تتمالك نفسها فقد بكت بكاء مرا، جعل محمد وإبراهام ينسحبان من الخيمة في هدوء.

***

ضاق المعسكر بمحمد وإبراهام؛ فقد تعودا التجمع في المساء بخيمة محمد يرتشفون الشاي ويحكون حكايات قراهم واهلهم، ويتناسون غربتهم وهم يغافلون الليل.

تأتي عافيت إلى المنظمة وتبلغ محمد وإبراهام بأن أم إبراهيم تريدهم في أمر ما بعد أن ينهوا عملهم.

يخرج محمد مع عافيت وهو يقول:

- لا تهتمي كثيرا، سوف يحفظهم الرحمن، فقط اهتمي بصحتك وصحة الوالدة ومريم، وإذا احتجت إلى إي شيء لا ترددي في أن تخبريني.

تنظر عافيت إلى محمد بعين باكية:

- شكرا محمد لاهتمامك، يجب أن أعود فقد تركت أمي مع مريم وحدها، لا تنسيا تعالا عند المساء.

يرجع محمد إلى مكان عمله وقد ترك هناك قلبه بين يدي عافيت، تساوره الكثير من الهواجس عندما يرى عافيت، تتشتت أفكاره ولا يدرى ما يقول، والأوقات كلها غير مناسبة للبوح، فهنا تحتاج إلى قوة خارقة تجعلك ترتب أجمل الأشياء في الخانات الأخيرة للحياة، وتأتي المشاكل والمأساة في أوليات كل شيء جميل.

يفيق على صوت إبراهام:

- أين وصلت يا رجل؟

يضحك وهو يجيب:

- أبدا. عادي.

- كلما رأيت عافيت لا يكون الأمر عاديا، فقد لاحظت ذلك. وما فعلته بأمر الطفلة مريم وإصرارك على تولي عافيت مسئوليتها يخفي وراءه سرا، سيأتي يوما وأعرفه.

يضحك محمد بصوت مسموع، وكأنه لم يضحك من قبل، وهو وحده يعلم السر ولديه الإجابة، لكنه لا يجد نفعا من الحديث عن شيء، يكفيه قلب عافيت الذي صار سعيدا محلقا لعنان السماء.

- أنت يا إبراهام دائما تثير الشكوك حول الناس، تخلى عن هذه العادة السيئة.

يخاطب محمد إبراهيم وهو يضحك.

يرد إبراهيم بنفس الطريقة:

- الخبر اليوم بفلوس وبكرة ببلاش.

يضحك محمد دون أن يقدم أية إجابة تسد فضول إبراهام.

***

الشاحنة التي تقل المؤن للثورة تحمل فوق المؤن حوالي خمسين شابا وشابة، تشق طريقها في الفيافي البعيدة وهي تبحث في الطريق إلى الأراضي المحررة.

ولأول مرة إبراهيم وأحمد و مكئيل على متن شاحنة، فقد يخيل لهم أنهم قد يسقطون من علوها هذا، وهي تتمايل وسط الخيران والمجاري.

يسأل أحمد:

- كيف تسير هذا الشاحنة، أخاف أن تدفننا هنا في واحدة من هذه المجاري قبل أن نلحق بأي معركة.

يجيب إبراهيم:

- أنت مجنون؟ هذا النوع من السيارات هو العمود الفقري للثورة، فهي تعمل ليل نهار من أجل إيصال المواد إلى الثوار، كنت أسمع بها كثيرا، لكنني مثلك اليوم لأول مرة استغلها في حياتي، عموما لا تخف؛ فنحن نكاد نصل.

وصلت الشاحنة إلى أولى محطاتها، ونزل المقاتل الذي يشرف على الرحلة وهو يقول:

- سوف نستريح هنا طوال النهار لنعاود المشي ليلا، أرجو أن لانكثر من التحرك، ولا تنزعجوا إذا جاء طيران العدو، فهنا مخابئ جيدة سوف نتوزع عليها.

يقول مكئيل:

- وصلنا إلى المعارك يا أحمد، المشكلة ليست في الشاحنة، المشكلة الآن في الطيران.

- كل شيء هنا جديد بالنسبة لنا، الشاحنة، الطيران، المعارك. هي حياة جديدة بكل تفاصيلها.

يضيف إبراهيم:

- نعم حياة جديد، حياة العزة والكرامة.

تضيع أصواتهم وسط صوت مرعب لمقاتلة جوية تملأ الفضاء بصوتها وتنشر الخوف في الأرض، جمع المقاتل أفراد القافلة ووزعهم على المخابئ، والطائرة ترمي القذائف كيفما تشاء.

أكثر من ساعتين قضوها في المخابئ، كانت أول تجربة للشباب في دروب الثورة، سوف يتذكرون لاحقا أن هذه اللحظات كانت من أبسط المواقف مقارنة بالمعارك التى خاضوها مباشرة مع العدو.

***

جهزت أم إبراهيم قهوة المساء، وهي تنتظر محمد وإبراهام، لحظات وهما يتحلقان حولها.

تنظر إليهم معاتبة وهي تقول:

- أين اختفيتم كل هذه الأيام..؟

يجيب محمد:

- والله مشاغل العمل، لا شيء آخر يا أم إبراهيم.

عافيت في ركنها يشع النور من وجهها رغم سحابة الحزن التى تغطيها، تحمل بين ذراعيها طفلتها الجميلة مريم.

محمد يخاطب أم إبراهيم وينظر خلسة إلى عافيت، إبراهيم يجلس صامتا لا يتحدث.

أم إبراهيم تعرف طبعه وتعرف أهله وتعرف قصة المذبحة الأليمة التي ماتوا فيها، من ينسى (بسكديرا) ومن يزيلها من ذكريات الشعب الإرتري في سلسلة الجرائم التى ارتكبها المستعمر في حق الأبرياء.

تسأله ممازحة:

- كيفك إبراهام، إن شاء الله تأقلت مع أجواء المعسكر؟

يجيب بهدوء:

- لم أتأقلم حتى الآن، ثم الفراغ الذي شكله غياب الشباب جعلني مستاء.

تقول أم إبراهيم وهي تصب القهوة:

- هذا هو حال الدنيا.

- أرجو أن لا تشغل بالك كثيرا، اهتم بنفسك.

يحمل محمد مريم عن عافيت، وشعور غريب يجتاحه ولا يعرف لماذا يسيطر عليه بهذه الصورة، محمد يشعر بأن مريم ابنته من عافيت، وكلما ذهب للخيمة يشعر بأن زوجته في انتظاره وابنته تبكي رغبة في أن يحملها عن زوجته عافيت.

ربما كان شعور محمد إحساسًا هروبيًا من حالة الحزن التي خيمت على المكان بعد رحيل أصدقائهم الثلاثة، أو ربما كانت بسبب شعور دفين في نفس محمد يخشى البوح به.. لكنه يظل إحساسًا رائعًا يأخذه بعيدا عن الحروب والنكبات وآلام الوحدة.

- يجب أن نلحق بأخوتنا، كنا نفكر في ذلك اليوم مع محمد، سوف نسلك طريقهم ونلحق بهم إن شاء الله.

تجيب أم إبراهيم:

- خيرا فعلتم، لكن عليكم توخي الحذر، لأن المخابرات الإثيوبية تحوم عيونها حول المكان.

طالما أنتم في هذا المعسكر، أرجو أن لا تغيبوا عني كثيرا، تعالوا تشربوا معي القهوة كلما سنحت لكم الفرصة.

***

أكملت الطائرة جولتها، وأفرغت ما لديها من قذائف بصورة عشوائية، ما يؤكد عدم الدراية التامة بالمنطقة، ويبدو الهدف هو نشر الرعب في أوساط الناس، وشل الحركة التجارية والنشاط اليومي.

يخرج الجميع من مخابئهم، وتعود الحياة عادية وكأن شيئا لم يكن، يتحلق الشباب حول المقاتل الذي يقود القافلة ويمطرونه بعدد من الأسئلة:

يا أبنائي: العدو الذي يحاربنا له أهداف كلنا نعرفها، هو لا يريد أحدا على هذه الأراضي. هو يخطط لجعل الأرض خالية من السكان، لذلك يتخبط في برامجه، وهذه الطائرة خير دليل، غرضها جعل الناس تغادر بلا رجعة.

أما الثورة فهي تخطط بهدوء؛ لأن الإمكانيات محدودة، لذلك لا تريد الدخول في عملية انتحارية تقضى عليها.

كل شيء بالهداوة، سوف ننحر هؤلاء المغتصبين ونحرر بلادنا بالطريقة التي نريد. نحن نعرف طبيعة هذه الأرض ونحفظ المواقع شبرا شبرا. وهذا يسهل علينا الحركة والتنقل، ومهاجمة العدو وإضعافه.

ولأن للثورة برامج كثيرة غير محاربة العدو، نحن نحاول بناء إنسان قادر على تحمل المسئولية، وخلق كادر لكل المراحل المقبلة.

هيا يا شباب نتعشى، ينتظرنا مشوار طويل، سوف نتحرك بعد العشاء.

إبراهيم كان يعرف الكثير من برامج الثورة بحكم تنقله من كرن إلى تسنى في تجارة البرشوت، وقد صادف الثوار في مواقع عديدة، بل نقل رسائلهم كثيرا من موقع لآخر، حسب خط السير الذي يسير عليه، لذلك كان يناقش المقاتل بواقعة العارف بكل الأمور، وهو ما جعل المقاتل ينتبه له أكثر، وهو ما جعل إبراهيم لاحقا بعد التدريب يضمه إلى القوات الخاصة بالثورة، والقيام بأعمال بطولية يشهد لها كل من عرفه.

تتحرك الشاحنة في الظلام وبلا أي إضاءة، فقد تدرب السائق على هذا الأسلوب في القيادة حفاظا على سلامة العمل، وحتى لا يشعر أحد بهذه التحركات التي قد تؤذى سير العمل وتتسبب في تدمير كل شيء وموت كل من على متنها.

يستغرب مكئيل وأحمد من سير الشاحنة ويتهامسان في هدوء:

- هذه سيارة أم دابة؟، كي تسير هكذا في الظلام بلا إضاءة؟ وكيف يتعرف السائق إلى الاتجاهات؟

يجيب أحمد بتعجب:

- الله أعلم.

بينما يستغرق إبراهيم في نوم عميق، وتطل يد أمه تمسح شعيرات رأسه وهي تقول:

- كيف سمحت لك نفسك أن تتركني أنا وأختك في هذا المعسكر وتغادر؟ لماذا لم تخبرني؟

ينقلب إبراهيم على يده الأخرى فيصطدم رأسه بأحمد، ليجد نفسه وسط شاحنة تسير في وسط الظلام.

يسأله أحمد:

- ما بك؟

- لا شيء. لا شيء.

وهو يمسح دمعة ساخنة من عينيه في الظلام.

مكئيل وأحمد تعودا على ظلام الشاحنة والمكان، وهما في همسهما تصل الذكرى بهما إلى القرية وبرامجها التى لا تنتهي.

وأحيانا تطل المزرعة التي كانوا يعملون بها فيتذكران نهارهم فيها وليلهم في المعسكر، وخيمة محمد تملأ الأفق.

***

الخريف في المعسكر وحـده كاف ليجعل كل شيء كريها، الناس في حالة تأهب قصوى، نسبة لما يحمله من مآسٍ بالنسبة لهم، الأمطار الليلية التي لم يتعود عليها غالبية سكان المعسكر، والزوابع الرعدية والصواعق خوف آخر يضاف إلى مشاكل الغلابة الذين تسبح خيامهم وسط مياه الأمطار وتصبح أمتعتهم في خبر كان.

المطر الذي ينزل في الليل، يعقبه صباح حار وظهور عدد من الحشرات التي تضيق بها جحورها نسبة لارتفاع درجات الحرارة.

ويطل الوطن البعيد وسط هذه الكوارث المتتالية، وعافيت يضيق صدرها بما يجرى:

- ماذا فعلنا بهم هؤلاء الإثيوبيين حتى يصل بنا الحال إلى ما نحن عليه الآن، سوف تلاحقهم لعناتنا إلى يوم الدين، يكفي ما نحن عليه، أنا سأغادر هذا المكان.

يتدخل إبراهيم وهو يساعد أم إبراهيم في إعادة الخيمة من جديد:

- صبرا يا عافيت، يجب أن تعلم الصبر.

نحمد الله يا إبراهيم لا زلنا أحياء، كم من الناس ماتوا من الأفاعي والعقارب، يجب أن نعمل شيئا حتى نخرج من هذا المكان الكئيب.

تجيب أم إبراهيم:

- لا تستعجلي يا عافيت، أنا أيضا أفكر في ذلك، لي قريب يقال إنه يسكن الخرطوم.

يجب أن نصل الخرطوم، حتى تستطيعي مواصلة دراستك، فقد فاتك الكثير، وهو ما يشغلني.

محمد يسيل من جبينه العرق وهو يعمل بكل صدق من اجل استقامت خيمة أم إبراهيم وعافيت.

تجهز عافيت القهوة ويتحلق حولها الجميع، ويحلق محمد بأحلامه فيها، ينسى أحيانا وجود من حوله، فيدخل في تجليات عجيبة، ويغالبه شروده وهو يبحلق فيها أحيانا كالأبله.

عافيت تعرف كل شيء بغريزتها الأنثوية، وهي تعرف جيدا مشاعر محمد تجاهها، كما أن محمد يعجبها أيضا، فهو إنسان مهذب ويعرف الأصول، لذلك لم يبح لها بمشاعره أبدا، ولكن كل شيء يفضحه.

أكثر ما يضايق عافيت هو حياة المعسكر، والكآبة التى تسكنه، أحيانا تفكر في الموضوع بجدية، وأحيانا تنسي الموضوع وهي تقول:

- لا يمكن أن يولد حب في هذا المكان الكئيب.

محمد يرتشف فنجان القهوة بنشوة لا توصف، فهي المرة الأولى التى تجهز عافيت القهوة، لذلك يشعر بطعم مختلف، نابع من هواجس قلبه وميوله الصادقة تجاه عافيت.

إبراهام يدعى الغباء وهو يرصد كل تحركات محمد. ومحمد يعلم أن إبراهام لا تفوته قيد أنملة مهما حاول أن يدعى عكس ذلك.

فرح حزين يغطي المكان، الخيام المنشورة على مد البصر، تتمايل نصفها مرميا على الأرض ونصفها يقارب على السقوط، والمكان يشبه مزرعة هاجمتها الأفيال،

ورغم ذلك يجد الحب مكانا في القلوب يدخل من خلاله وينشر فيها الفرح.

فرح حزين، يرسم قوس قزح في صباح تتقاطر ما تبقى من مياه ليله على الخيام، والأطفال يلعبون ويمرحون يجوبون المكان في فرح أيضا حزين.

***

قررت أم إبراهيم أن تهرب بعافيت ومريم من هذا المكان، وأن تبحث عن طريق يأخذها إلى الخرطوم التي لا تعرف عنها شيئا غير اسمها. عافيت متحمسة لهذا البرنامج، فهى تحمل عقلا منفتحا بأحلام كبيرة، لا يمكن أن تتحقق من خلال هذا المعسكر.

في المساء تفاتح أم إبراهيم محمد وإبراهام في الموضوع، هما أيضا يتحمسان للبرنامج، ويقول محمد:

- لولا وجودكم في هذا المكان، لغادرنا من زمن، ولكن كيف نتخلى عنكم دون أن نرتب لكم مكانًا

آمنًا، عموما سوف نغادر معا إلى كسلا، ومن هناك نفتش عن أناس يعرفون الخرطوم جيدا ليقوموا بمساعدتكم، أما نحن بعد أن نرتب أموركم سوف نلحق بأخوتنا في الميدان، سنلتحق بالثورة ونعجل بطرد العدو من كل الأراضي الإرترية.

اتفق محمد مع صاحب الباص الوحيد في المعسكر على أن ينتظروه خارج المعسكر بعد نقطة التفتيش التابعة للمعسكر، تردد السائق في البداية، ولكن محمد طمأنه على أنهم ذاهبون لإجراء بعض الفحوصات الطبية لأم إبراهيم، وسوف يرجعون معه في المساء، بعد أن دس في يده كمية النقود.

تبسم السائق وهو يقول:

- لا مانع إذا كنتم سترجعون معي، انتظروني بعيدا عن نقطة التفتيش حتى لا يشعر بنا العساكر.

تودع عافيت المعسكر من نافذة الباص وهي ترى الخيام المتراصة على مد البصر، حاملة مريم بين ذراعيها، ومحمد يتأملها وهي تضع ابتسامة حزينة على شفتيها.

الشيء الوحيد الذي يجعل وجهها يبتسم كلما نظرت إلى مريم التي تحملها بين ذراعيها، وتصر على بقائها على يدها وكأنها قطة تخاف على صغارها من الاقتراب، بل لا تحتمل أن يأخذها أحد لدقائق معدودة، فهي تنام بين أحضانها، ولا تعلم من يحتضن من؟

هل تحتضن عافيت مريم؟ أم تحتضن خديجة؟ ومن بحاجة لمن؟ هل مريم بحاجة لعافيت حتى تشفى من موت أمها؟ أم هل عافيت بحاجة لمريم لتنسيها ألم فقدان خديجة؟

كلنا هنا بحاجة للآخر.. كل يبحث عن فقيده، عن حبيبه، عن روحه، عن وطنه.

***

في كسلا الحياة تختلف تمام عن حياة المعسكر، مدينة جميلة مليئة بالحيوية والنشاط، وتزدحم الطرقات بالناس، المزينة بالحياة.

تتنفس عافيت وهو تقول:

- كأننا خرجنا من قبر، اللهم ردني إلى بلدي.

يضحك محمد وهو يقول:

- لا خيام ولا غيره، من هنا تبدأ الانطلاقة للمدن الكبيرة.

يسأل محمد أحد المارة عن أقارب له يسكنون بكسلا، ولحسن الحظ يقع في شخص يكون جارهم، مما سهل عليهم مهمة البحث والتعب.

يبتسم وهو ينظر إلى أم إبراهيم:

- هذه دعواتك الصباحية يا طيبة القلب.

يترك محمد أم إبراهيم وعافيت ومريم عند أقاربه، وينطلق هو وإبراهام نحو السوق. في موقف الباصات

يجد السائق ويخبره أن اليوم عطلة، لذلك سوف نقضى الليلة هنا وغدا إن شاء الله سوف نرجع معك و رجاء أعطِ هذا المظروف للعم فكاك، صاحب الدكان.

يقرأ العم فكاك الرسالة وعيناه تدمعان:

- عمي فكاك، آسف لأنني لم أودعك، لكن ثق تماما أن الأيام التى قضيتها معك كانت جميلة ولاتنسى رغم مرارتها.

أنا ذاهب إلى الميدان لأقاتل من أجل استرجاع الحق، وسوف أثأر لأهلي الذين ماتوا بلا سبب، لذلك سوف أقتل أي إثيوبي يقف في طريقي بسبب وبلا سبب.

دعواتك لي بالتوفيق وتقبل تحيات صديقي إبراهيم فهو أيضا سيذهب معي لذات الغرض.

نلتقيك إن شاء الله في ارتريا الحرة.

ابنك

محمد سليمان هاكين

يطوى العم فكاك الرسالة المبللة بدموعه وهو يقول:

- اللهم يا حافظ يا رحمن احفظهم من كل بلاء، وردهم إلى ديارهم سالمين غانمين.

لا يعلم هل يجتمع الأحبة بعد؟ وهل الوطن من يجمعه؟ أم أن مخيمات اللاجئين ستظل تطاردهم؟

لا أحد يعلم ما يخبئ لهم القدر.

عم فكاك لم يعد يحتمل الحزن أكثر من ذلك، أحبته يفارقونه واحدا تلو الآخر، لكن ما باليد حيلة، فنداء الوطن أغلى من نداء عم فكاك، لكن قلبه ودعواته تظل معلقة بمحمد وإبراهيم وإبراهام وأحمد و مكئيل ، وكل رفقائهم.

يتمنى عم فكاك لو كان يملك من العمر والقوة ما يمكنه من حمل السلاح، والوقوف في واجهه الأعداء، لكنه لا يملك سوى الصلاة والدعاء للثوار وللوطن.

كل شيء هين.. الوطن هو وحده الذي لايهون.

***

قضى إبراهيم و مكئيل وأحمد قرابة العام في معسكر التدريب، وهناك لم تكن الحياة سهلة، قوانين المعسكر صارمة والوقت مقسم على مدار الأربعة والعشرين ساعة، ما بين عمل ودراسة وتدريب وتنظيم وغيره من البرامج التى تجعل المتدربين لا ينشغلون بشيء آخر غير برامج المعسكر.

عام مر بحلوه ومره، مر بسرعة البرق وبفزعه، فرغم صعوبة الأمور وشدتها إلا أن حلم العودة إلى الديار وتحرير الوطن كان دافعا قويا لتحمل تلك الصعاب، فبينما يشرد أحدهم ليفكر فيما مضى وفيما هو قادم إلا ويحزن على ما وصل إليه، فرغم كل المحيطين ورغم توحد الهدف وهو تحرير الوطن، إلا أن الإنسان يشعر بالوحدة والغربة بعيدا عن أهله ووطنه، فما أجمل الالتفاف حول مائدة طعام معد

لتوه، مليئة بالمودة والدفء، يتحدث الكبار والصغار، كل محمل بأحلام وآمال.

الإنسان مهما مرت عليه التجارب، ومهما سافر وذهب وجاء، وعرف أناسا من كل البلاد يظل الأهل هم خير الرفقة وخير الأوطان.

لا أحد يتمنى لك الأفضل سوى والديك، لا أحد يريدك أن تكون أفضل منك سواهم، لاشيء يؤرقهم سوى حزنك وألمك، الحياة معهم ملتفة حولك والرغبة في إرضائك سعيا لنجاحك وتفوقك.

الآباء غالبا ما يريدون تحقيق آمالهم في أبنائهم، فقد يعجز الأب عن الوصول لمستوى تعليمي معين أو الترقي لوظيفة ما، فيسعى جاهدا أن يستثمر كل ما يملك لتحقيق حلمه في أبنائه.

وقد يغضب الأبناء كثيرا من الوقت من رغبات آبائهم، فلكل حلمه الخاص ولا أحد يريد أن يحقق سوى ما يتمناه

هو لنفسه، لكن كثيرا ما تكون أحلام الآباء أكثر قوة وواقعية من أحلام الأبناء.

لكن اليوم صار حلم الوطن هو حلم الصغير والكبير، حلم الآباء والأبناء.

أظهر إبراهيم تفوقا واضحا في عدد من الأنشطة، خصوصا في الرماية التي تألق فيها لدرجة أنه لفت انتباه المسئولين هناك، إضافة إلى لياقته البدنية العالية، مما أهله للانضمام إلى القوات الخاصة في أول توزيع بعد التخرج من الدورة الطويلة والشاقة.

مكئيل تم توزيعه على وحدة الهندسة لذلك تم إرساله إلى معسكر تدريب آخر ليتلقى دورة مكثفة قبل الانخراط في العمل.

بينما اختير أحمد مدرسا في مدرسة الثورة التي تهتم بتأهيل المقاتلين وتعمل على محو أمية لم يحالفه الحظ فى أخذ قسط من التعليم.

أحمد رقيق ومرهف المشاعر والإحساس، وهذا سهل بأن يلحظه الجميع رغم إصراره على ادعاء القوة، لكن قلبه المرهف ومشاعره الجياشة التي تحل عليه دموعا غزيرة طوال الوقت وتفضح أمره.

كان التحاقه بالتدريس ومحو أمية من لم يحالفهم الحظ ولم يحصلوا على نصيبهم من التعليم هو الاختيار الأمثل له، وإن كان وجوده ليس بعيدا عن نطاق الحرب وبرفقة الثوار، لكن يظل دوره تعليميا.

اتفق إبراهيم ومحمد و مكئيل على أن يقضوا الليلة مع بعض لأنهم في صباح اليوم الثاني سوف يتفرقون فى أماكن متعددة، ربما قد لا يجتمعون هكذا مرة أخرى في وقت قريب ولا يدرون ماذا تفعل بهم الأيام.

غنى إبراهيم في ذلك المساء أغنيات ود أمير بصوت جميل اكتشفه مكئيل وأحمد لأول مرة بينما جعل أحمد من أحد جراكن المعسكر إيقاعا يضرب عليه بصورة جميلة تتماشى مع الأغنيات المختارة، أما مكئيل فقد

أضاف للأغنيات طعما آخر وهو يصفق بكلتا يديه محافظا على الإيقاع.

ارتفعت أصواتهم في المعسكر، مما جعل عددا كبيرا من المتدربين يلتفون حولهم ويغنون معهم، لحظات وتحول المكان إلى كرنفال صغير ترتفع فيه الأغنيات بألوان مختلفة، فقد تدخل البعض بأغنيات أخرى وصار المكان تصدح فيه كل مرة أغنية بلون مختلف وبيئة مختلفة وبلغة مختلفة.

دعوني من فضلكم، أراها

فأنا لست قادرا على العيش سواها

يعيّرونني بالجنون والضياع

لكأني أضعت لهم متاع

أنا لست بتائه أو مجنون

بل محبوب متيّم بمن أحب مفتون

عندما غنى إبراهيم أغنية للفنان عجولاى، ارتفعت الأصوات وصارت صخب جميلا في المكان.

عجولاي، اسمه الحقيقي عثمان إدريس وئيرة، واسم عجولاي كناية له هو وزوجته، واعتبره البعض تشهيرا بها، وكانت والدته من أسباب طلاقه لغيرتها من زوجته.

تغزل فيها:

بنت البنادر غزيرة الضفائر، والذي يمسكوا فوقه الساتر، الفقرا عجزوا، فأيها الشيطان أنت باسر».

صوت غنائهم جعل أحد المسئولين يشير إليهم بالدخول إلى مواقع نومهم، فقد حان موعد الراحة، وغدا برامج الرحيل كل إلى موقعه في انتظارهم.

تعمد إبراهيم و مكئيل وأحمد الدخول مع بعض في إحدى الاستراحات، وواصلوا برنامجهم، لكن هذه المرة بلا غناء، فقد ظلوا طوال الليل يحكون عن القرية والمعسكر.

عندما بدأت حكايات المعسكر تذكر إبراهيم أمه وأخته، ولم يستطع أن يتمالك نفسه فدمعت عيناه وأخذه الحنين إليهم وهو يقول لنفسه:

- ترى كيف حالهم، وكيف يقضون أيامهم في ذلك المكان؟

شعر مكئيل وأحمد بإبراهيم وحاولا تشجيعه بكل ما يملكون.

يقول أحمد:

- أم إبراهيم امرأة شاطرة وهى تعرف كيف تدير أمورها وتعرف جيدا كيف تحافظ على بنتها.

يضيف مكئيل:

- لا تنس فقد تركنا محمد وإبراهام فهما سيرعيانهما، لا تشغل بالك.

كما أنك لا تنسى أن أختك عافيت ذات شخصية قوية، ووجود مريم في حياتهما جعلها أكثر قوة ومسئولية.

ليرد مكئيل خاصة مع وجود محمد معهم:

- ولماذا محمد تحديدا؟

- يا إبراهيم ألم تلاحظ اهتمام محمد بأختك عافيت؟، ألم تشعر بمشاعره تجاهها وصمته عند قدومها.

- محمد لايستطع أن يتكلم في وجود عافيت إلا قليلا، وعندما يشرع في الكلام يحمر وجهه خجلا منها.. محمد يحب عافيت.

- يالله.. كما أنا أعمى كيف لي لا أنتبه لذلك.. معك حق محمد يحب عافيت، وإلا ما سعى بكل الطرق ليجعل مريم تبقى معها، هو يريد أن يسعدها رغم حزنه الدائم على ما هو فيه وفقدانه لأهله، لكن تظل سعادة عافيت ما يشغله وما يسعى إليه.

هنا ابتسم إبراهيم.. وشرد قليلا ليسبح في خياله، فيجد أخته تزف في فرح كبير إلى صديقه محمد في بلدهم

الحبيب إريتريا وعلى أنغام الموسيقى والرقصات الشعبية، فيصطحب أخته من يدها ليسلمها لمحمد.

ياالله.. أيأتي ذلك اليوم؟ أتمد في أعمارنا ونعود سالمين إلى ديارنا لنفرح جميعا بصحبة بعضنا البعض؟

اللهم جمع شملنا وارزقنا الصحبة الطيبة.

***

في الصباح الكل توجه إلى وجهته المخصصة، فقد أثارت المجاميع المتحركة خلفها الغبار وهى تسير بانتظام إلى مواقعها حسب التوزيع.

يخاطب أحمد نفسه وهو في خط السير:

- هل تجمعنا الأيام مرة أخرى، فنحن لم نفترق كثيرا، ولأول مرة ننقسم إلى مجموعتين بداية من المعسكر الذى استقبلنا، والآن تنقسم مجموعتنا بعد التدريب إلى ثلاث مجموعات، ولا ندرى ماذا يخبئ لنا القدر في أيامه .

***

عندما وصل محمد وإبراهام إلى معسكر التدريب، كان قد مضى على توزيع أحمد و مكئيل ستة أشهر في مواقعهما الجديدين، وقد اكتظ المعسكر بعدد كبير من الشباب الذين جاءوا لنصرة الثورة والانضمام إلى صفوفها.

كان يعتقد محمد أن الشباب سينتظرونهم في المعسكر، أو فى أماكن قريبة من المعسكر، ولم يتخيل أن مهمة البحث عن شخص موجود في الثورة سيكون بهذه الصعوبة.

ثم إن قوانين المعسكر لا تسمح بالتحرك إلا بإذن وعلم المشرفين على المعسكر، وإن أي مخالفة ستعرضك للعقوبة.

حياة جديدة مليئة بالصرامة والانضباط، واليوم بأكمله منظم وموزع ولا مكانة للبحث والسؤال.

***

مرض إبراهام أثناء التدريب وتم نقله إلى مستشفى المعسكر، وبينما يتلقى العلاج هناك، لمح أحمد وهو جالس مع أحد الأطباء، شك في بداية الأمر، إلا عندما اقترب من المكان فإذا به وجها لوجه بأحمد، لم يصدق أبدا أن يجد أحد أصحابه بهذه السهولة، فقد نسى الأمر تماما، وترك الموضوع للقدر.

احتضنه أحمد بقوة وهو يربت على ظهره باشتياق.

إبراهام ينظر إلى أحمد باستغراب، فقد تغير شكله وهيئته، وصار يشبه ذلك المقاتل الذي أشرف على قدومهم من مدينة كسلا، وصار وجهه قويا وصارما، ولكن لم تتغير ابتسامته أبدا، بمجرد أن تبسم وظهرت أسنانه البيضاء، تذكر تلك الأيام الطويلة التي فصلت بينهم.

يسأل أحمد مندهشا:

- متى وصلت يا إبراهام؟ وكيف حال محمد؟

- منذ شهرين أنا ومحمد في هذا المعسكر، كنا نعتقد أن نلتقيكم بمجرد وصلنا ولكن يبدو أن الميدان أكبر مما تصورانه.
- أشعر بأن كل رجال وشباب إريتريا هنا في المعسكر يتدربون من أجل الوطن، كم تأخرت كثيرا يا أحمد
- لم تتأخر ياإبراهيم.. كل بأوانه.
- وكيف حال أم إبراهيم وعافيت؟
- الحمد لله بخير، سافرتا إلى الخرطوم برفقة أحد أقرباء محمد، وبعد أن تطمئنا عليهما، تحركنا فورا إلى الميدان.

يسأل إبراهام:

- أين إبراهيم و مكئيل ..؟

بعد التعليم تم توزيعنا على وحدات مختلفة، فقد توزع إبراهيم في القوات الخاصة و مكئيل في قسم الهندسة.

يقاطعه إبراهام:

- وأنت تم توزيعك على المستشفى.

- لا.

- أرجو أن لاتكون مريضا .

يضحك أحمد:

- أبدا. الحمد لله، أنا بصحة جيدة كما تلاحظ، ولكن هنا طبيب صديقي، ألتقيه أحيانا في أوقات راحتي.

- وأين تم توزيعك:

- أعمل مدرسا بمدرسة قريبة من هنا.

- وكيف لي أن ألتقي بإبراهيم و مكئيل ، خصوصا إبراهيم لأطمئنه على أحوال أمه وأخته.

- لا أظنك تلتقيه في وقت قريب، هو دخل في دورة جديدة تابعة للقوات الخاصة، قد تستغرق ستة أشهر على أقل تقدير.

- كانت توصيني أم إبراهيم كثيرا عليه وهى تتوجه إلى الخرطوم.

يجيب أحمد:

هو أيضا كان منزعجا في الأيام الأخيرة، ويتذكرهم بدون مناسبة في أوقات كثيرة.

- وكيف حال مريم؟
- هي بخير، أكملت عاما وثلاثة شهور.
- ياالله.. الرضيعة تكبر.
- ونحن أيضا نكبر يأحمد.
- أتتذكر والدة مريم ياأحمد؟
- ومن يمكن له أن ينساها.. الله يرحمها.
- مريم هي وطننا الصغير، جمعتنا في المخيم، وقادرة بإذن الله على جمعنا على أرض الوطن.

- هي الزرع الصغير في أرض مهجورة تتنظر فلاحيها.
- الحمد الله الذي هدى محمد لاصطحابها وإعطائها لعافيت وأم إبراهيم، هما الأقدر على رعايتها وحمايتها.
- نعم، كما أن بقاءها بالقرب منا يعطينا أمل النصر غدا.
- إن ترك مريم لبعض النسوة في المخيم، وذهاب أم إبراهيم وعافيت بمفردهما، كان أمرا يصعب تحمله على طفله، كما أن وداعها يعنى وداع حلم الوطن.
- الحمد لله.
- عموما سوف أزورك غدا إذا كنت موجودا بالمستشفى.
- إن شاء الله، أرجو ألا يرسلوني إلى المعسكر حتى التقيك مرة ثانية.
- حتى لو رجعت، سوف أزوركم هناك، لاتعلم كم أنا مشتاق لمحمد أيضا.

ودع أحمد إبراهام وهو يجر خلفه ذكريات طويلة لا تنتهي، وأياما جمعتهم فى كثير من الموافق، في القرية والمعسكر.

***

تمر السنوات بسرعة، وتطول الغربة، ويطول عمر النضال، لكن الثورة تنتصر من حين لآخر، وهاهي المدن تتحرر على أيدي الثوار ومحمد وإبراهام افترقا من سنوات بعد التعليم ولا يدرى أحد خبرا عن الآخر.

على امتداد طول الجبهة العريضة تتوالى الانتصارات، وإبراهيم يتدرج في المسئولية ليصبح قائد فصيلة في القوات الخاصة، وصار أحد القادة المعروفين والذين يعمل لهم العدو ألف حساب، و مكئيل أيضا يبدع في سلاح الهندسة، ويعمل على تنفيذ الكثير من المهام التي أوكلت إليه، لكنه ينجو بأعجوبة من الموت، وهو يحاول إفشال لغم أرضي ضمن عدد من الألغام التي

نشرها العدو، ينفجر اللغم ويطير بساقه اليمني، ويقضي قرابة العام في المستشفي، وبعدها يحاول أن يدرب نفسه على ساق اصطناعي.

مكئيل ذلك الشاب المؤدب يتحول إلى كائن آخر، وتزيده الإعاقة عنادا ولم يتخل عن مهمته في سلاح الأسلحة.

رغم اهتمام المسئولين به وإعفائه من الكثير من المهام، إلا أنه مصر على مواصلة المشوار، وتنظيف الكثير من المناطق من الألغام.

محمد العاشق الولهان يجد ضالته في البحر، فقد تم إدراجه ضمن القوات البحرية، وأصبح لايفارق البحر دائما، وكلما خلا بنفسه تحيط به الذكرى. عافيت ترى أين أنتِ الآن؟

رغم السنوات والأيام الطوال لا يزال القلب ينبض بها ولا تزال تسكن في الأعماق .

بل كان محمد يحرص على كتابة مذكراته اليومية عن الأحداث التي مرت عليه في سنوات الحرب وداخل عالم البحار والقوات البحرية، وكان لعافيت نصيب الأسد من كتاباته، وكأنه أقسم على أن تشاركه أنفاسه رغم بعد المسافات وصعوبة اللقاء وربما استحالته.

لكن لاشيء أمام الحب مستحيل.

محمد كان يكتب خطابات غير مرسلة لحبيبته عافيت.

يكتب عن الحب وعن الألم، يكتب عن الحاجة وعن الرغبة في الحياة وفي النجاة، كان يكتب أملا في اللقاء.

في إحدى المرات حاول أحد زملائه أن يقرأ ما يكتبه محمد، فغضب غضبا شديدا منه؛ فهو لا يحب لأحد أن يعلم بحبه، هو لايتحدث في هذا الأمر، ويرى أن الوقت المناسب للحديث هو وقت اللقاء والزواج بعافيت.

عافيت...

بعد السلام.

لا أعلم أين أنتِ الآن، ولا أعلم كيف أجدك وأراك، كلما حققت نجاحا زادني ذلك قربا منك، فأعلم أن الانتصارات الصغيرة يعقبها نصر كبير، وأنا آمل في الرجوع لأحضان الوطن، حيث أجدك وأجد الوطن.

انتظريني يا عافيت أنا أحرر الوطن لأجلك ولأجلي ولأجل الصغار والكبار، وأعلم جيدا أنك مثلي حتى وإن لم يكن بيدك سلاح تحاربين به أعداء الوطن، لكن صمودك سلاح، وتمسكك بمريم سلاح، آمل أن تكملي دراستك.

أعجز عن التعبير عما بداخلي ربما خجلا أو ربما خوفا من رفضك لمشاعري، لكن ظني بالله خيرا، إن قلبك يحمل متسعا لي، فأنا في أشد الحاجة لقلبك الطيب ولروحك النقية، فليجمعنا الله على أرضنا قريبا.

المحب دائما محمد

تلك كانت إحدى الرسائل التي يكتبها محمد لعافيت وهو في مهامه الرسمية، فكلما سمحت له الفرصة على الاختلاء إلا وكتب رسالة تحمل صدقا لمشاعره تجاه تلك الفتاة التي يعتبرها سببا قويا بعد الله في تمسكه بالحياة، وفي شجاعته في محاربة العدو وتحرير البلاد.

الحب يحولنا لأشخاص أقوياء، الحب يستفز الطاقات الكامنة، ويجعل كل منا إنسانا غير الذي يعرفه، الحب يصنع النجاحات ويبني الأوطان، فحب الوطن من حب الله، وحب العباد من حب الله.. الحب يصنع ولا يهدم.

***

في الخرطوم التحقت عافيت بمدرسة تشرف عليها منظمة اليونسكو، ووجدت أخيرا مقعدا دراسيا، وهناك واصلت تعليمها، وهى تتطلع لمستقبل خططت له

كثيرا، بينما أم إبراهيم تخطط لاستئجار غرفة صغيرة لها ولابنتها بعد أن وجدت عملا كفراشة في إحدى مدارس الخرطوم.

وأخيرا اهتدت أم إبراهيم عن طريق إحدى العاملات معها في المدرسة لغرفة تضمها هي وابنتها ومريم، وأصبح لهما سكن مستغل يتصرفان فيه بحرية دون حرج.

وصار الثلاثة تحتضنهما تلك الغرفة، لا أحد معها سوى الله.

عافيت ترتب الغرفة جيدا وتضيف إليها بعض من لمساتها فتصبح الغرفة كتلك الأكواخ التي تعودت عليها في ضواحي كرن.

للمكان رائحة ترحل معك أينما ذهبت، وليل الخرطوم طويل لا ينتهي، ليس كليالي القرية أو المعسكر، بل هو ليل مزحوم يشبه النهار من حيث حركة الناس والسيارات، لذلك من الصعب التعود على هذه الأجواء من أول وهلة، بل تحتاج لفترة حتى تصير جزءا من هذا الزحام.

عافيت تهتم بدراستها جيدا وتتفوق بصورة واضحة، حتى درجاتها في الاختبارات تثير انتباه المعلمين.

هذا التفوق المتكرر عاما بعد عام فتح لعافيت آفاقا جديدة وبرامج لم تتوقعها ولم تحسب لها يوما من الأيام حسابا، نعم هى طموحة وتحلم دائما بعالم أجمل وأرحب، لكنها لم تتصور أبدا أنها ستجد نفسها بين ليلة وأخرى في عالم أول ودول فسيحة وعريضة بالنظام والجمال.

فقد اختارتها لجنة المدرسة ضمن عشرة من الطلاب المتفوقين لإتمام دراستهم بإحدى المعاهد البريطانية.

عافيت ستسافر إلى لندن، وهناك ستواصل دراستها، وسوف تنتقل إلى بلد آخر وحلم أكبر.

انزعجت أم إبراهيم في بداية الأمر، فهى أيضا لم تتوقع خبرا كهذا، ولم تتخيل يوما أن عافيت ستفترق عنها إلا

عروسا تزفها في فرح إلى منزل الزوجية، لكن أن تسافر..؟ هذا ما لم تتوقعه.

تجلس أم إبراهيم وحدها في المساء تفكر في الموضوع:

- يا إلهي! أرى أن غربتنا ستطول، وأن أسفارنا لم تنته بعد، إبراهيم في الميدان وأنا في الخرطوم وعافيت ترتب للسفر إلى لندن، لم يكفنا سفر السيارات، فتضاف إلينا سفريات أخرى بالطائرات، متى سيلم الله شملنا بهذا الطريقة، يارب احفظنا.

هل تتجدد الآلام من جديد؟

هل يفترق الأحبة مرة أخرى؟

تدخل عافيت مسرعة فتقطع أفكارها وهى تقول:

- خلاص ياأم إبراهيم سوف نسافر بداية الأسبوع المقبل.

- وأنا يا عافيت لمن تتركينني.؟

- ادعُ لي الله بالتوفيق، كلها عامان وأعود إليك بإذن الله.

- لاشيء يقال .

- ربنا يوفقك ويحفظك.

لكن تظل المشكلة الحقيقة، وهي كيف تسافر عافيت وتترك مريم؟

قلب عافيت لايتحمل ذلك، وكذلك مريم التي بدأت أولى مراحل النطق، لاتتحمل فراقها، فهي تناديها طوال الوقت عفت.. عفت.. عفت والتي طالما سمعتها عافيت حتى دق قلبها من شدة الفرح.

أم عافيت تكبر في العمر، ويصعب عليها تحمل طفلة بمفردها بحاجة إلى من يرعاها، ومن يعلمها الهجائية، وهي لا تملك القدرة على ذلك.

فما العمل؟

تقنع عافيت أمها بأهمية السفر من أجل نفسها، ومن أجل مريم ومن أجل وطنها، ويصعب عليها ترك تلك

الفرصة لكن في الوقت نفسه يشق على قلبها تركهما، لكن لامفر.. الوطن ينادي والمستقبل ينادي.

لكن مريم؟ كيف سيكون حالها؟

ما أسرع مرور الأيام ياأمي، ستمر السنوات مرور الكرام، لاتقلقي.

وعندما أعود تكون مريم قد التحقت بالمدرسة، وسأحرص على الاتصال طوال الوقت، والمجيء في الأجازات.

وأما عن مريم فقد اتفقت مع إحدى المدرسات بالمدرسة أن تمر عليها كل يومين، حتى تأخذ بيدها، وتحاول تعليمها الأرقام والحروف، فهي تعلم قصتها جيدا، كما أن العاملات في المدرسة أصدقاؤك ولن يتركوك ومريم وحيدتين.

***

لم تتحمل أم إبراهيم فراق ابنتها عافيت، وزادتها الوحدة ضمورا ونحولا، ومسئولية مريم تزاد يوما تلو الآخر، كل مساء ترجع من المدرسة وهي متعبة ومنهكة، ترتب بيتها وتجهز قهوتها، وتستريح قليلا، على أن تبدأ طقوس القهوة بعد أن تصلي صلاة المغرب، وهي شاردة ومشتتة الأفكار، ما بين الأهل في البلد وعذابات المستعمر، وما بين المعارك التي تزداد ضراوة كل يوم في الميدان، وما بين لندن التى بها زهرتها الجميلة عافيت، وما بين مريم التي تشعر بأنها مقصرة في حقها، ومقصرة باصطحابها معها في العمل.

الثورة تتقدم يوما بعد يوم، الانتصارات تتوالى، والمدن تتحرر وتسقط معطرة بدماء الشهداء، والأخبار تحمل كل صباح انتصارا جديدا، وإبراهيم يترائى لها وسط هذه المعارك والانتصارات، أحيانا تفرح فرحا كبيرا بمناسبة ما تسمع من انتصارات وتحمد الله كثيرا على أن طريق العودة أصبح قريبا بإذن الله، وأحيانا تدمع عيناها وتبكى

مخافة أن تدخل البلد ولا تجد إبراهيم ضمن قوافل الفاتحين، تخاف أن تأخذه رصاصة العدو التي لا ترحم، تخاف، وهي الأم التى تعودت أن ترى ابنها طفلا صغيرا مهما كبر ومهما صار رقما كبيرا في ساحات القتال وأصبح قائد سرية، يحسب له العدو ألف حساب.

«يارب احفظ ابني وأنت خير الحافظين».

هذا الدعاء لا يفارق فم أم إبراهيم طالما هي جالسة على سجادتها.

المرأة القوية التي تخطت كل الصعاب، الآن هي تضعف، ويزيدها الخوف ضعفا، وأصبحت تخاف من الأيام وما تحمله لها من أنباء.

والرعب يملأ قلبها خوفا على مريم التي تكبر أمام عينيها؛ فهي تعلم أن الله مسبب الأسباب، وأن مريم عوض لها عن الوحدة التي تعيشها دون إبراهيم وعافيت.

ابتسامة مريم هى طوق النجاة لشرود أم إبراهيم الدائم خوفا على الغائبين.

أم إبراهيم لا تتحمل الفقدان، فيكفيها ما فقدته جراء الصراعات والحروب، فقلبها الضعيف لم يعد ليتحمل مزيدًا من الحزن والألم على فراق أحد.

اللهم لم شلمنا ولا ترنا شرا في إبراهيم ورفاقه.

***

يتضاعف عمل القوات البحرية للثورة، وتعمل على تخطيط تحرير أهم المدن الإرترية، بعد أن أصبحت مدينة في قبضة الثورة، المدينة التي تعتبر أكبر معاقل العدو، وبتطهيرها من دنس المستعمر، أصبح العدو يفقد توازنه، وأصبح من السهل اصطياده في اي وقت ومكان تحدده الثورة.

لذلك أصبحت مدينة مصوع الشغل الشاغل للثوار، وأصبح للبحر طعما آخر، يجب أن يخلط بطعم النصر

والحرية، لذلك أصبحت قوافل الثورة تزحف نحو مدينة مصوع، والبحرية تجهز كل ما لديها من عتاد من أجل معركة تعتبرها حاسمة ومصيرية، ومحمد الذي أصبح شاعرا يكتب أروع الملاحم الوطنية التى ترددها الفرق الفنية للبحرية، ويحول ذلك الحب الذى نما في معسكر للجوء إلى أشواق كبيرة، يحاول تعويضه في ملاحمه البطولية، ولكن عافيت لا تزال تسكن قلب المسكين كلما أوى إلى فراشه ليلا، عافيت تخرج من البحر أحيانا، وتضيع في أمواجه أحيانا، وتسافر في أحلامه كيفما تشاء.

وكيف لحبيبته أن تفارقه!، فكل ما يقدمه لها ولوطنها، عافيت المتمم للنجاح، الوجه الجميل الذي تنيره الأفراح ويتساقط أمامه ملتهبو القلوب.

عافيت هي كل الدنيا لمحمد.. فلا تستقيم الحياة بدونها.. فاسمها حفر على كل عملية يقوم بها محمد،

فلا يتخيل شيء بدونها.. هي رفيقة الحروب وحبيبة الوطن.

فبينما يعود من كل عملية يكتب ويحكي لها ما جرى على الورق، ليشعر بيديها تملس على شعره وتحتضنه بين ذراعيها وتدعو له بالنصر على أعدائه وأعدائها.

في ذروة الاستعدادات تخلى محمد عن أشعاره وأصبح يقظا وهو يدرب بعض الأفراد الجدد علي قيادة الزوارق الحربية، ويخطط في كيفية الوصول إلى مصوع كما تعمل الثورة على ذلك في حذر.

تصل فصيلة إبراهيم إلى تخوم مدينة مصوع مع غيرها من الفصائل الموجهة إلى تنفيذ العملية، وأصبحت مصوع أشهي من ذي قبل.

في معركة طاحنة تخوضها الثورة بين كر وفر وعناد مدعوم بإرادة قوية، استطاع جيش الثورة أن يدخل مدينة

مصوع في فبراير من عام 1990 لتصبح ميناء إرتريا الأولى حرة طليقة ترفرف فيها أعلام الحرية.

ويدخل الثوار المدينة في مشهد لا يوصف أبدا، ولأول مرة بعد فراق دام سنوات، يجتمع محمد وإبراهيم و مكئيل في أجمل المدن المحررة.

إبراهيم قائد سرية للقوات الخاصة، ومحمد قائد سرية للقوات البحرية، و مكئيل قائد سرية لقوات الهندسة.

لم يصدقوا جميعا أن القدر جمعهم من جديد، كان ذلك في أول اجتماع لقادة الفصائل داخل المدينة المحررة.

محمد أصبح رجلًا بحريًا لا يعرف شيئًا غير البحر وأهوائه، وإبراهيم ذلك الشاب الصارم الملامح لا يزال بنفس القوة والصلابة، بل ازداد عنادا مع المعارك الكثيرة التي خاضها، ومنها تعلم الكثير، وعلم الكثيرين معنى التضحية والفداء.

مكئيل ، والذي يمشي بهدوء، تنازل عن تلك المشية السريعة بسبب الإعاقة، وأصبح أكثر هدوءا، لكنه لم يتنازل عن مهامه في سلاح الهندسة، وهو يدير الفصيلة على أحسن وجه، وتنتظره في مصوع المحررة أكثر الأعمال، فتحتاج المدينة إلى تنظيف وإزالة الكثير من شبكات الألغام التى يصبها العدو المرعوب.

بعد الاجتماع جلسوا على شاطئ البحر يخففون أشواقهم، ويحكون لبعضهم البعض المواقف والبطولات التى لاقتهم في حياتهم النضالية، وأصبح الحديث كله عن الثورة والمراحل التى مرت بها وصولا إلى هذا الميناء الذى حلموا به كثيرا وأخيرا تحقق النصر.

يسأل أبراهيم:

- ماذا عن إبراهام..؟

يجيب محمد:

- افترقنا بعد التعليم، ولا أدري إن كان تم توزيعه حتى.

ثم يسأل محمد ذات السؤال:

- أين أحمد..؟

يجيب إبراهيم:

- تم توزيعه في التعليم الأكاديمي، لم نلتقِ منذ سنوات، أرجو أن يكون بخير.

يتذكر محمد:

- نعم لقد التقاه إبراهيم صدفة في مستشفى المعسكر، وقتها كان ينوى زيارتنا في معسكر التدريب، حسب ما قاله لإبراهيم.

يضيف مكئيل:

- الميدان كبير جدا، ولا تدرى أين يتم توزيعك، أحيانا تجد صديقك على مسافة قريبة جدا من مكان وجودك، ولا تعلم بذلك لسنوات، وتفاجأ حين تعلم ذلك.

صادفت الكثير من أقاربي وأبناء قريتي في مواقع كنت أمر بها كثيرا، ولم أعلم بذلك إلا من خلال عمل يجعلني أحتك بنفس الموقع.

يضيف إبراهيم:

- أحمد يتحرك كثيرا بحكم المدارس في مواقع مختلفة في المناطق المحررة، كما أنهم يسافرون للخارج كثيرا للاحتكاك بمؤسسات تعليمية هناك يتعامون معها للنهوض بالتعليم.

لذلك من الصعب العثور عليهم حتى إذا كنت تعلم أماكن وجودهم.

أما إبراهام قد تجده في موقع قريب منك وأنت لا تعلم، احتمال يكون في مصوع ونحن لا ندرى

يضيف محمد:

- نعم. هذه حقيقة. فلولا اجتماع قادة الفصائل ما وجدنا بعضنا البعض بهذه السهولة.

يضحك الجميع وهم يفترقوا على أن يلتقوا ليلا داخل المدينة لقضاء أمسية تذكرهم بالأيام الجميلة.

ومصوع لاتزال على الأنسام الأولى للحرية، تتنسمها رغم الخراب الطاغي على المكان، فقد تعمد العدو تدمير الكثير من المباني القديمة والأثرية التي يرجع تاريخها لسنوات طويلة، كما أن الكثير من السكان هجروها نسبة للسياسات الاستعمارية القمعية والطاردة، والطيران الحربي الذي يهاجم المدينة صباحا ومساء؛ لذلك تجد المدينة أشبه بثكنات للجيش، ولا تجد فيها سوى الغربان التي تنعق في فضائها، ورائحة البارود المنتشر في كل مكان.

كل شيء هين طالما أن الوطن صار بين يدي أبنائه، رغم أن البناء شديد الصعوبة على عكس الهدم، ولكن لا مفر سوى العمل على بنائه من جديد.

***

عافيت في الخرطوم بعد ستة سنوات من الغياب، تخرجت خلالها وحصلت على وظيفة، وجواز سفر بريطاني.

أضافت لندن لعافيت مع المعرفة أناقة فائقة وبان جمالها حتى صارت تشبه البنات اللائي تظهر صورهن في واجهات المجلات.

أم إبراهيم تجلس بجوارها على السرير وهى تمسح على شعرها، وتحكي لها السنوات التي قضتها بدونها في الخرطوم، والمدرسة التي تعمل بها، وطيبة المعلمات والعاملات معها ومع مريم، وعن زياراتهم المتكررة لبيتها الصغير، والاستمتاع بقهوتها الإرترية ذات المذاق الجميل.

عافيت تحكي لأمها عن لندن، وعن طبيعة الناس المختلفة تماما عن إرتريا والسودان، وعن الطقس البارد والجميل وعن النظام والنظافة والترتيب والاهتمام والوقت الذى لا يهدر على الفراغ، وغيرها من الحكاوي.

ورغم كل ما تعلمته عافيت وما رأته من علامات التقدم والازدهـار إلا أن شيئا كبيرا كان ينقصها هو الدفء، دفء القرب، دفء العناق ورؤية الأحباب بين ذراعي الوطن.

التحمل كان ثمة الجميع الغالبة، في الحروب الجميع يتحمل، وفي العلم كان لزاما على الجميع أن يتعلم لأجل رفعة الوطن وتطهيره من الوباء الذي حل عليه بأيدي الأثيوبيين.

تسأل عافيت:

- كيف أخبار إبراهيم وبقية الشباب؟

تجيب أم إبراهيم:

- منذ ثلاثة سنوات زارني أحمد، لا أدرى كيف عرف عنواني، فقد جاءني بالمدرسة، لم أصدق أنه أحمد في بداية الأمر إلا عندما فتح شفتيه وابتسم لى وهو يقبل يدي.

قال: إنه في مهمة بالخرطوم وسوف يرجع بعد أيام إلى الميدان، وقد قضي معي يوما كاملا في البيت، استغربت كثيرا عندما ذهبت للعمل صباحا، قام بتنظيف البيت وترتيبه، وذهب إلى سوق قريبة واشترى خضارا، وطبخ أنواعا من الأطباق.

عندما عدت في النهار، كان كل شيء جاهزا، وبخته بشدة لما فعل، لكن تبسم وهو يقول لي:

- الثورة علمتنا كل شيء يا أم إبراهيم.

افترقنا في اليوم الثاني، بعد أن طمأنني على الشباب، ومن يومها لم أسمع أي خبر عنهم.

تقول عافيت وهي تضحك:

- في أوروبا طبيعي أن يساعد الرجل المرأة، هم يقتسمون الأعمال المنزلية فيما بينهم.

تقاطعها أم إبراهيم:

- أبناؤنا علمتهم الثورة بعد أن اضطرتهم الظروف وإلا نحن لا نعرف ما تتحدثين عنه.

الحمد لله الحرية تقترب، وبعد تحرير مصوع لم يبق شيء سوى تحرير أسمرا، ونرجع إلى قرانا آمنين إن شاء الله.

تقول عافيت:

- دعواتك يا أمي أن يحفظ ربي إبراهيم وأصدقاءه ونراهم بإذن الله.
- أنا سوف أعود بعد أسبوع، أجازتي في نهاياتها، كنت أخطط أن نزور الأراضي المحررة، ولكن في أجازتي القادمة سوف نخطط لذلك.

تضيف أم إبراهيم:

- أجازتك القادمة ستكون الأخيرة، ولن ترجعي إلى لندن مرة أخرى، سوف تتحرر إرتريا كلها، ونرجع جميعا إلى ديارنا، وإذا أردت أن تعملي فمن الأولى أن تعملي في إرتريا.

- نعم يا أمي، أنا أيضا أفكر في ذلك، بعد التحرير سوف أعمل في بلدي، البلد تحتاج للجميع، يجب أن نشارك في تعميرها.
- أنا رأيت في لندن فيلم تحرير مدينة مصوع، لقد تدمرت المدينة بكاملها، ولم يبق شيء سوى البحر، هذه حال الكثير من المدن التى تحررت.
- كما أننى كرهت فراقك ياأمي وفراق مريم، ويعلم الله لولا العلم الذي لم يكن هنا ما سافرت أبدا، لكن كل شيء يهون لأجل الوطن ولأجل مريم.
- هل خططت شيئا لمريم؟
- نعم ياأمي مريم تستكمل مراحلها الأولى في التعليم، وأفكر في شيء أظن أنه سينال إعجابك.
- وماهو يا عافيت؟
- عندما أعود المرة القادمة سنتحدث.

***

لم يمض عام على تحرير مدينة مصوع حتى تحررت العاصمة أسمرا في مايو من عام 1991، وبتحرير أسمرا أصبحت كل المدن ترفرف عليها رايات الحرية عدا مدينة عصب والتى لحقت بباقى المدن بعد أيام معدودات، وصارت إرتريا حرة أبية.

إبراهيم يشرف على حراسة مدينة أسمرا بفصيلته، والمدينة تغطيها حالة من الفرح، كل شارع من شوارعها هو كرنفال قائم بذاته، فقد خرج المواطنون في أفواج، و امتلأت الأماكن بالغناء الثورى، خصوصا شارع (كمبشتاتو) الذى تحول إلى صالة عرس جميل، تتلون في الأغنيات والأفراح طيلة الليل والنهار.

إبراهيم على اتصال دائما ببقية أصدقائه، خصوصا محمد بحكم وجوده في مصوع، أما مكئيل فهو يتنقل من منطقة إلى أخرى بحكم عمله، وتتضاعف

الأعمال عند سلاح الهندسة بعد التحرير، فهناك الكثير من شبكات الألغام المنصوبة في عدد كبير من المدن والقرى، وتحتاج إلى عمل كبير حتى يتخلصوا من هذا الشبكات التى قد تسبب في موت الكثير من الأبرياء، لذلك تجدهم يعملون دون توقف، ويضعون الحواجز واللافتات التى تحمل (ممنوع الاقتراب، المنطقة مزروعة بالألغام) في بعض الأماكن التى تنتظر دورها في عملية الاستخراج.

يلتقي أحمد بإبراهيم لأول مرة بعد التحرير في أسمرا. بعد أن تم نقل مكاتبهم للعاصمة، كان لقاء أخويا يحمل الكثير من الشجن والحكاوى والذكريات التى طالت سنوات.

في منزل إبراهيم قضيا عطلة الأسبوع، وهناك فوجئ بوجود أم إبراهيم التي حزمت حقائبها ودخلت مع أول الأفواج من السودان.

تضحك أم إبراهيم وهى تقبل أحمد:

- حمدا لله على سلامتك يا بني، ربي يفرحني ببقية الأخوة.

يقول أحمد:

- أكيد محمد يكون قد زارك فهو مشتاق كثيرا لرؤيتك.

- نعم فقد اتصل بي ابني محمد من مصوع، سوف يزورنا نهاية الأسبوع المقبل، هو مشغول ببعض الأعمال.

حتى مكئيل كان معي من يومين، لكنه غادر لمشغولياته الكثيرة، حزنت كثيرا عندما رأيته يعرج بساقه الخشبية، لكن الحمد لله طالما هو على قيد الحياة، شعر بتأثري فقال لي وهو يحتضنني:

- نحن أهون من كثيرين غير قادرين على الحركة، وغيرهم رحلوا في صمت من أجل أن نفرح بالوطن الكبير.

ما أصعب أن تفقد جزءا من جسدك، لكن كل شيء فداء للوطن المحبوب هين، يمكنك أن تفقد حتى روحك.. المهم أن يظل الوطن شامخا لا ينحني أبدا.

يكفي سنوات الحزن والألم والضياع بعيدا عن الوطن، فالوطن كفيل أن يضمد الجراح ويلملم الشتات، ويجمع الأحبة، ليأخذ بآلامهم جميعا فيلقيها عرض البحر، لتذوب وتسقط معها سنوات العجاف والشتات والفراق، لتحل سنوات الانتصار والنجاح والنصرة

يضيف أحمد:

- طبعا أسمرا جميلة، وبيت إبراهيم واسع وكبير، أكيد ستستقرين هنا في أسمرا.

تضحك أم إبراهيم:

- لا يا أحمد. أنا فقط أطمئن على إبراهيم ويأخذني إبراهيم إلى قريتي، أنا رجعت لأعيش في المكان الذي خرجت منه.

- وكيف حال عافيت؟

- والله عافيت أصبحت (خواجايه) كانت قد اتصلت من أسبوع، قريبا إن شاء الله سوف تأتي لأسمرا.

***

يمتلئ دار إبراهيم بالشباب من جديد في أسبوع حمل محمد من مصوع وأحمد الموجود أصلا بأسمرا و مكئيل بعد أن فرغ من مهمة صعبة في ضواحي مدينة دقمحرى.

أم إبراهيم تجهز القهوة بعد الغداء ويجتمع الشباب بعد زمن طويل بهذه الصورة التي تعودوا عليها قديما.

إبراهيم يتحدث بصورة جادة:

- اسمعوا يا شباب طبعا نحن عندما خرجنا للثورة لم نتوقع أن نعود سالمين، نسبة للمعارك التى خضناها والموت الذي رأيناه بأعيننا، لذلك من الطبيعي أن

يستشهد عدد كبير من الناس في سبيل الحرية، ولا أظن بدون هذه التضحيات أن تأتي الحرية.

يبدو أن إبراهيم يريد أن يقول شيئا قد يصعب عليهم تحمله، لكن ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟ فالمدن تحررت واحدة تلو الأخرى، وكل يعلم فقيده، فلا شيء مما قد يقوله إبراهيم يدعو للخوف.

- ماذا ياإبراهيم؟ تكلم.

تقول أم إبراهيم وهى تدمع:

- ربي يرحمهم. لولا أرواحهم لما دخلنا بيوتنا.

يضيف إبراهيم:

إذن يجب أن نؤمن جميعا بأن الذى سأل في هذه الأرض من دماء هو الشرف الذي نتباهى به، لذلك يؤسفني أن أزف إليك نبأ استشهاد إبراهام ، فقد استشهد وهو يقود عملا بطوليا في تحرير مدينة دقمحرى، ولولا

هذه المعركة لما تحررت أسمرا وهي سالمة هكذا من غير أي دمار.

ساد صمت طويل فضاء الغرفة، ولا شيء يسمع غير نحيب أم إبراهيم وهى تقول بصوت متحشرج:

- الله، لقد لحق بأهله، في (بسكديرا)، كان يخيفني صمته، هذا الإنسان المهذب المسكين، كم دعوت الله أن يعود سالما ويؤسس أسرة وينجب أطفالا، امتدادا لأهله.

يقول إبراهيم:

- هو متزوج وأب لثلاثة من الأبناء، وزوجته ممرضة تعمل في واحدة من مستشفيات الثورة.

تمسح أم إبراهيم دموعها وهى تقول:

- الحمد لله، من ترك أطفالا لم يمت، يجب أن تأخذني إلى أولاده.

- يجب أن يكونوا تحت أعيننا يابني، لا أحد لهم، علينا أن نجتمع معًا، لنأخذ بيد زوجته وأبنائه.. كان الله في عونهم.

تظل أم إبراهيم تبكي وهي تتذكره عندما كان بصحبتها هو ومحمد، وكيف ظل بجانبها حتى اطمأن على حالها هي وعافيت ومريم في الخرطوم.

- الموت لا يحب الانتظار.. الموت يأخذ الطيبين.. لكنها ضريبة الوطن وحق الوطن على الجميع، فلا أحد يمكنه أن يرد نداء الوطن.

- لو تعلمين ياأمي ماذا قدمت زوجته في مستشفيات الثورة، وكيف ساعدت في إنقاذ المئات، ليس فقط بطاقتها وعملها ومجهودها ووقتها، بل بدمائها.

- تعلمون جميعا أنه في حالة الطوارئ تنفد أكياس الدماء من المستشفيات، فعدد المصابين في ازدياد دائم، وما يتوفر من الأكياس لا يكفي.

- كثيرون ينزفون جراء الضرب والغارات والغدر والخيانة.. زوجة إبراهام لم تتأخر لحظة في تقديم دمائها للمصابين، فكم فقدت الكثير من الدماء من أجل إنقاذ تلك الأرواح البريئة.
- هذا هو الأصل الطيب يابني، وهذا هو حب الوطن.
- إن زوجة إبراهام كادت أن تفقد حياتها بعد أن تبرعت بكيسين من الدماء لأحد المصابين الذي كان في وضع حرج جدا، وكان بحاجة شديدة لنقل دماء، فلم تفكر دقيقة ومدت ذراعيها حتى يحصل على دمائها، لتفقد الوعي تماما، فكانت ضعيفة البنيان جدا، تأكل القليل جدا، تبذل مجهودات شاقة وهو ما جعل قلبها يؤلمها وتنخفض ضربات قلبها وتصاب بهبوط حاد في الدورة الدموية لولا ستر الله ورحمته بها.
- الحمدلله أنها على قيد الحياة، وإلا فمن كان يتولى مسئولية الأبناء بعد فقدان الأب.

- الله نعم الراعي والوكيل يا أمي.

يفترق الأصدقاء وكل واحد يحمل في داخله حزنا كبيرا.

إبراهام الذي كان يحلم أن يغير قريته (بسكديرا) إلى جنة حتى تنسى ما لقيته من نيران غادرة ومقابر جماعية دفن فيها عشرات الأبرياء إلى واحة جميلة تنسي كل تلك الآلام. لكن القدر لم يمهله، فقد خطفه الموت والحرية على الأبواب و لم يتبق منها سوى أيام قليلة.

أراد أن يمحو كل آثار الحزن والوباء الذي طال قريته، أراد أن يعود بالأخضر بدلا من اليابس، تمنى حياة أخرى لأبنائه وزوجته، رسم أحلاما طالما شق عليه تحقيقها.

لكن هكذا هو الموت.. كل يأتي بميعاده، ويظل الحلم حلما إلى أن يتحقق على أيدي رفاقه وأصدقائه، ليظل

أبناؤه في أعينهم، وتظل الحرية شعارهم في ظل وطن ينامون على ضفافه.

***

جاء محمد من مصوع إلى أسمرا وهو يحمل قصيدة جديدة كتبها حسب رغبة أحد الفنانين المعروفين، وقبل لقاء الفنان مر بوزارة التعليم، وهناك وجد أحمد.

خرجا هو وأحمد إلى واحدة من المقاهي القريبة وهناك عرض قصيدته على أحمد.

قال أحمد:

- أعطها لإبراهيم.
- وما علاقة إبراهيم بالغناء؟

ضحك أحمد وهو يقول:

- لقد اكتشفنا مواهب إبراهيم التى لم تسمع بها، فقد أطربنا كثيرا أيام التعليم الأولى فى الميدان، خصوصا أيام تخرج دفعتنا وقبل التوزيع.

يضحك محمد:

- أكيد أنت تمزح.

- دعنا نذهب اليوم عند إبراهيم ونتغدي معه وهناك نتحدث عن الموضوع.

ما أن دخلا بيت إبراهيم حتى كاد يغمي على محمد، فقد وجد عافيت تجهز أدوات القهوة.

شهق محمد وهويقول:

- عافيت، ماشاء الله، حمدا لله على سلامتك.

- متى وصلت؟

- أهلا وسهلا، لم يخبرك أحمد.

- وصلت منذ ثلاثة أيام.

- أبدا والله لم يخبرني

يضحك أحمد وهو يقول:

- مفاجئة يا شاعرنا

- وأين أم إبراهيم،

يضيف محمد؟

تقول عافيت:

- ذهبت إلى القرية أمس، قالت لي.

- سأرتب البيت الحقي بي على مهلك.

تعلم أن الحرب غيرت كل شيء، وأمي لا تطيق البقاء هنا، تصر على العودة إلى القرية، رغم أنه لم يبق لنا أحد، فإبراهيم هنا ومريم معنا، لكنها أمي التي ترى أن القرية أحق بأهلها، وتحب أن تقابل الله وهي هناك، لاتريد أن تموت بعيدا.

دائما ماكانت تدعو الله بالعودة إلى القرية وإلى منزلنا، دائما ما تشتم رائحتها، مرددة: القرية جنة الله على أرضه.

- الأرض، الطين، الرفقة الطيبة، دفء اللقاء، كلها مشاعر تبحث عنها أم إبراهيم بين جدران منزلها، فلم تكن تجدها هنا..

هكذا قال محمد.

ترد عافيت:

- لكننا جميعا هنا ولا ينقصها شيء.
- لا ينقصها رائحة المنزل، ومقتناياته وأثاثه وأوانيه، ينقصها الذكريات والقرب منها، ينقصها رائحة الراحلين.

لم يحتمل محمد المفاجئة، أصبح جالسا كالصنم لا يتحدث، بل يبتسم فى مكانه وهو يتأمل عافيت ومريم تلك الرضيعة والتي صارت على وشك الالتحاق بالمرحلة الأولى من التعليم، فقد أصبحت ملاكا يملأ المكان.

- كيف حالك يا محمد؟

يقاطعه أحمد قبل أن ينطق:

- يكتب شعرا.

تضحك عافيت:

- من تقصد؟ محمد؟!

- نعم محمد صار شاعرا كبيرا يتهافت الجميع على كلماته.

يجيب محمد:

- اصمت يا أحمد، دعك من حديثه ياعافيت.

- لا استمر يا أحمد أريد أن أعرف.

- في وقت لاحق ستعرفين كل شيء.

هكذا يرد عليها محمد في خجل شديد ناظرا شذرا إلى أحمد لشعوره بالإحراج من هذا الموقف، رغم أنه لاشيء على الإطلاق يدعو للإحراج.

هذه هي طبيعة محمد أمام عافيت؛ يتحول إلى شخص آخر خجول جدا، يعجز عن إتمام كلامه، يزوغ بعينيه بعيدا عنها، وكأنه يخشى لقاء الأعين.

يخاف أن تفضحه عيناه، يخاف أن تعلم عافيت شدة حاجته إليها، فليس له أحد على الأرض سواها.

يشرد محمد فتقطع عافيت صمته:

- لم تجب كيف حالك؟
- الحمد لله يا عافيت.
- سنوات طويلة لم نتلقِ.
- نعم. لكن الحمد لله بفضلكم تحررت البلاد وصار كل شيء ممكنا.
- كيف مصوع؟
- والله مصوع تحتاج إلى عمل جبار حتى تقوم من جديد.
- ستأخذني ذات مرة إلى هناك، أحتاج أن أزورها.

- أكيد يا عافيت.

- مصوع وغيرها من الأماكن التى تختارينها.

محمد لايريد فقط أن يصطحبها إلى مصوغ بل إلى مصوغ وغيرها من باقي مدن وقرى إريتريا، والتي تحررت على أيدي الثوار، فهو يريد أن يحكي لها ماضيه مع تلك البلاد، ودوره البحري في إنقاذ البلاد.

محمد الآن بحاجة إلى رفيقة وزوجة ينام بين ذراعيها، فقد عانى مشقة الحروب والوحدة واليتم، هو الآن يبحث عن أهله في عافيت.

شرد كعادته يفكر في الأماكن التي قد يأخذها فيه، وعن الحديث الذي قد يدور بينهما، وهل يمكن أن تعترف بحبه له أم تنكر عليه حبه لها؟.. أسئلة كثيرة تدور في خلده يريد أن يتحدث بها لكنه يعجز حتى عن مجرد طرح سؤال.

دخل إبراهيم البيت ليصدم من وجود أحمد ومحمد، بعد الغداء قال أحمد ممازحا:

- محمد يحمل قصيدة جديدة، وأنا عرضت عليه أن تغنيها أنت.

- أنا..؟

إبراهيم مستغربا:

- نعم تستعيد أيام الغناء الأولى في معسكر التدريب.

- إذن الأمر حقيقي، محمد يكتب شعرا، وانت ياإبراهيم تغني.

هكذا قالت عافيت.

- الموهبة لا تضيع طالما أنها جزء أصيل من شخصية الإنسان حتى لو مرت السنوات، الحروب تمرض المواهب لكن لا تقتلها أبدا، وما إن سنحت الفرصة ثانية حتى عاد كل لليلقته في موهبته التي خصه الله بها.

- نعم معك حق، أنا دائما ما أردد ذلك لمحمد، والآن أقولها لإبراهيم.

أمجاد الثورة والخلاص ليس فقط بتحرير البلاد، بل بتحرير الأنفس وجعلها تحلق حيث عنان السماء.

لا سلطان على الموهبة، ولا موت لكاتب أو شاعر أو مطرب، الوطن يخلد الناجحين المحبين الساعين لعلو اسمه بأية وسيلة، بالفن، باالكرة بالموسيقى، بالعلم، بالثورات، بكل ما نملك من قوة وعزيمة.

تلك أيام يا أحمد كل شيء ممكن فيها.

إنها تجليات إنسان يحاول أن يفعل أى شيء

الحمد لله أسمرا مليئة بالفنانين.

تقول عافيت وهي تضحك:

- كنت تغني في الميدان يا إبراهيم، كنت تقول لي، وماذا لو قلت لك؟
- والله كنت جلبت معي جيتارا.

على الأقل كنت تطربنا به في البيت، يقول أحمد وهو يضحك.

القوات الخاصة أضاعت كل مواهبنا، وصار همنا كله في المعارك.

ولم لا عليك أن تغني ومحمد يستمر في الكتابة، هكذا قال أحمد.

يضرب محمد بيده ذراع أحمد ليخبره بالتوقف عن الحديث، فعافيت لازالت هنا، وأحمد لايستجيب له، ويواصل حديثه ويصر على الحديث عن موهبة محمد، وكأنه أراد لصاحبه أن يستريح وأن تلتفت إليه حبيبته عافيت.

***

خرج محمد وأحمد من البيت ومحمد يضيف إليه البرد حالة لا يستطيع أن يحدد نوعها، وقلبه يرتجف وتنبض فيه الحياة من جديد.

وخيال عافيت يطارده في شوارع المدينة الجميلة.

عافيت البنت الجميلة التى كانت تتخبأ خلف ثوب أمها في معسكر اللجوء حين كان يعمل هو في المنظمة، الآن صارت إنسانة واثقة من نفسها وهى تتحدث بأدب وبكلمات متزنة، وأصبح جمالها مزعجا، فقد زادتها الأيام نضارة وبهاء.

محمد تحيط به عدد من الأسئلة وهو يمشى في الرصيف دون وجهة وهو يسأل نفسه محتارا:

- هل الغربة تكون قد غيرت عافيت؟

لا والله الغربة لا تغير الإنسان الأصيل، هكذا رد أحمد.

فوجيء محمد بجوابه، فهو لم ينطق بكلمة، فقط يتحدث بداخله لايخرج ما يفكر فيه على لسانه، هو صامت ساكن، يمشيء بهدوء مثقل بآمال.

- لا تتعجب يامحمد، أنا أعلم ما تفكر فيه جيدا، وأعرف ما دار بخلدك.

- أنت لا تعلم شيئا.
- بالعكس، نحن نعلم كل شيء.
- نحن!
- من نحن!
- أنا وإبراهام و مكئيل .. حتى إبراهيم كان يعلم.
- يعلم ماذا؟ ماذا تقصد؟
- ما أعلم طريق الحب وهي عالمه.

ضحك محمد لكن لم يبد إجابة محددة ولا رفضا، فقط دندن بأغنية الفنان السوري فهد بلان:

ياسالمه ياسالمه

بعيني أنا شفت البنية حالمة

تضرب برمش تصيب وتعلم نايمه

كلمتها بالحب قالت لي ما أعلم طريق الحب وهي عالمة

بعيني أنا شفت البنية سارحة

نحضر لها ترمي السهام الجارحة

وتداوي بالنظرات جرح البارحة

ساعة تشد الحب وهو يشدها تسبح للغرام لوحدها

وساعة بتبقى إيديها على خدها

خايفة تقول أهواه وتصبح نادمة

ياسالمة ياسالمة

يفكر محمد فيما يمكنه أن يفعل في المرحلة المقبلة، فالوطن يتحرر تدريجيا، أما آن لحبه أن يتحرر ولقلبه أن ينتصر كما انتصرالثوار، ولكن كيف؟

ينام محمد نوم المحب القلق، ضربات قلبه متسارعة جدا، عيناه لا يغافلهما النوم فالتفكير يأتيه يمينا ويسارا، ماذا عليه أن يفعل؟

ألم يحن الجمع بعد؟ ألم يأتِ اللقاء دون فراق؟ متى تأتي حياة المودة والرحمة بينه وبين عافيت؟

أسئلة تكاد أن تشل عقله، تصرفه عن النوم، تأخذه إلى أحلام قريبة بعيدة.

يقلب محمد في خطاباته التي لم يرسلها بعد، في تاريخه طوال فترة التحرير، في معاركه البحرية وحبة المتمم لكل النجاحات والراعي للانتصارات.

يعقد محمد العزم على الذهاب لأم عافيت في قريتها قبل أن تنتهي من ترتيب المنزل، وقبل ذهاب عافيت لها للعيش معًا هناك.

أراد أن يكون بمفرده مع أم إبراهيم، أراد أن يتحدث لها كأمه وليس كخالته أو أم صديقه أو حبيبته.

يطرق الباب الخشبي القديم الذي تسبقه حديقة صغيرة ماتت أعشابها من الإهمال نتيجة الفرار، تفاجىء أم إبراهيم بقدومه، يقبل رأسها ويديها:

- محمد يابني أشرقت الأنوار، إنها مفاجأة غير متوقعة، اهلا بك يابني.

- هل جئت إلى هنا عمدا؟ ام جئت لزيارة أحد زملائك في القرية؟
- لا يا أم إبراهيم، لقد جئت من أجلك.
- من أجلي أنا؟
- نعم جئت لرؤيتك والحديث معك في أمر يشغلني ولا يمكن لأحد أن يحسمه غيرك.
- اجلس واسترح، سأعد لك الغذاء أولا ثم تخبرني عما جئت له.
- لا أريد الطعام، أريد الحديث فقط يا أم إبراهيم.
- لا حديث قبل الطعام.
- لا ياخالة، لا أريد أن أتناول أي شيء قبل التحدث.

شعرت أم إبراهيم برغبة محمد الملحة في الحديث، وتوتره الشديد الذي يظهر عليه، وتلعثمه في التعبير عن ما يريده، هدأت من روعه، قائلة:

- نأكل بعد ما أسمعك، تكلم يابني.
- أم إبراهيم أنا بلا أهل ولا جليس أو ونيس، قضت الحرب على ما تبقى لي من الأقارب.
- نحن أهلك يامحمد، يعلم الله أني أحبك مثل إبراهيم وعافيت ومريم.
- وأنا أعتبرك مثل والدتي رحمة الله عليها، ولهذا جئتك لأتحدث إليك قبل أن أتحدث لأي إنسان.
- تحدث، كلي آذان مصغية، ما الأمر؟
- أريد أن أكون واحدا منكم، أريدك أمي، ومحمد أخي، وعافيت زوجتي.
- زوجتك؟
- نعم يا أم إبراهيم أريد أن أتزوج عافيت؟ فهل تقبلين؟

تبتسم أم محمد وتربت على كتفه:

- ياالله عشت اليوم الذي أجد فيه أبنائي صاروا كبارا ويتزوجون.
- ما رأيك يا أم إبراهيم؟
- وهل لي أن أجد أفضل منك زوجا لابنتي عافيت، ونعم الابن والزوج يامحمد، فإن لم تكن تتقدم أنت لطلب يديها كنت سأتقدم أنا لطلب يدك لها، أنتم جميعا أبنائي، وما مر علينا من ويلات الحرب وتبعات الثورة، كان جديرا أن يطهر قلبنا وتميز لنا الأيام والمواقف الخبيث من الطيب، وأنتم نعم الأبناء والأخـوة، ومكسبنا الحقيقي من الثورة.

يهدأ محمد ويتنفس بعمق شديد، وكأن شيئا قد انزاح لتوه من على صدره:

- الحمد لله يأ أم إبراهيم.. الحمدلله.

يحتضنها بقوة، يرقص كالصغار، يقبل كلتا يديها ورأسها:

- الحمدلله يارب الحمدلله، اليوم أنهيت نصف المهمة ولم يبقَ سوى النصف الآخر
- اطمئن يابني لا نصف ولا غيره.
- ماذا تقصدين يا أم إبراهيم؟
- أقصد اطمئن ونم مستريحا، عافيت لك؟
- هل أخبرتك بشيء؟
- ليست في حاجة لتخبرني، وجهها يفضحها وقلبها لايستر.

يبتسم محمد:

- حقا يا أم إبراهيم؟!
- لا تقل أم إبراهيم ثانية، قل يا أمي؟
- حقا يا أمي؟ هل تعتقدين أنها ستوافق على الزواج؟
- هي بالفعل وافقت.

- نعم، كيف؟ متى؟، هذه أول مرة أتحدث في الأمر، كيف لك أن تعرفي موقفها.

- سأطلعك على شيء وأنا على يقين أنه سيظل سرا بيننا لن تخبر به أحدا، كما حدث عندما أخبرتك عن قصة خديجة لا تظنني يامحمد لا أرى، ولا تظنني أجهل ما قدمته لعافيت عند قدومها المعسكر كي تمر عليها تلك الفترة العصيبة بسلام.

- يا محمد أعلم تدبيرك جيدا للحصول على مريم وإعطاءها لعافيت، فهمت أنك تريد أن تخرجها من أزمتها وأن تطيب جراح قلبها بعد أن أخبرتك بوفاة خديجة في رحلة الهروب من إريتريا لذلك المخيم.

- ما الذي تريدي أن تقوليه ياأمي؟

- عافيت تجيد الرسم جيدا، هذه منحة وهبها الله لها، لا يعلم أحد عنها شيئا سواي بعد الله، هي لا تريد لأحد أن يعلم، بل إن إبراهيم لا يعلم شيئا عن ذلك.عافيت

تشعر بالخجل من رؤية أحد لرسومها، ليس لقلة ثقة في نفسها، ولكنها لا ترى أنها موهوبة أو أن ذلك أمر يستحق الوقوف عنده، باعتباره رفاهية في ظل تلك الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد.

يتعجب محمد كثيرا مما يسمعه لأول مرة، ليس لكتمان تلك الهواية والموهبة، لكن لتشابهه مع عافيت في نقطة أخرى.

محمد يجيد كتابة الشعر، وعافيت تجيد الرسم، وكلاهما لم يتحدثا في هذا الأمر، فقط أم عافيت اكتشفت ابنتها، ومحمد اكتشفه أحمد وإبراهيم في رحلة الثورة، كما أن إبراهيم أيضا يجيد الغناء، وعافيت تستطيع أن تعزف قليلا.

- يالله.. هل كل ذلك بسبب الثورة؟ هل هي من أوجدت تلك الهوية أم من أخرجت مخزونها للنور؟

الوطن قادر على استنهاض الهمم وإظهار العزائم وخروج المواهب، لكن أن تجتمع تلك الفنون في هذه العدد القليل من الأصدقاء.

حقا الإنسان بمن يخالل، فلربما يجهل الفرد سبب قربه من شخص بعينه وسبب حبه له وتعلقه به لتمر الأيام وتكشف عن أواصر الصلة بينهما والتشابه إما في بعض السمات الشخصية أو بعض المواهب الفطرية، وإن كان حب الوطن والتضحية لأجله هو قمة الهدف وجذر التشابه.

- لكن يا أم إبراهيم.. أقصد يا أمي ذلك أمر جيد جدا، ولكن ما علاقة ذلك بطلبي للزواج منها وتأكيدك على موافقتها؟

- الرسم يامحمد.

- كيف؟

- عافيت بعد أن أعطيت لها مريم بسبعة أيام وجدت ورقة بيضاء رسمت عليها بالرصاص شيئا استوقفني.

- ماهو؟

- طفلة صغيرة بين رجل وفتاة. في البداية ظننت أنها تتخيل حياة تلك الطفلة بدون هذا الرجل وهذه المرأة، لكن عندما نظرت جيدا وجدت أن الطفلة مرفوعة لأعلى الرؤوس فوق الاثنين وليس أسفلهما أو بينهما.

- ما الدلالة؟

- إن كانت الفتاة في الأسفل فيعني ذلك واقع الطفلة وهي سقوطها وحيدة بعد موت والدتها ووالدها، فوالدها لأعلى وهو أنهم قد رحلوا وأن الله قد اختارهم وبقيت هي وحيدة في الأسفل، أما إن كانت بينهما فيعني تمني بقائهما، لكن عافيت وضعت مريم لا على الرأس بأيادٍ تحملها من أسفل، وهو ما تتمناه عافيت لها.

- وما دلالة ذلك على رأيها؟

- الرجل يحمل طابع السمكة على يده اليمنى التي يحمل بها الطفل، وأنت في الحقيقة من تحمل ذلك الطابع على يدك، والذي جاءك عندما كانت والدتك تشتهي أكل السمك طوال الوقت وهي حامل بك.

- يااااااه ياأمي.. يااااه ياأم إبراهيم.. ياالله!!!

- كيف خطر ذلك على بالك، وكيف تذكرتِ ذلك الطابع؟ وكيف أمكنك تقديم كل هذه الترجمة لهذا الرسم؟

- والله يابني لا أعلم وأنا لست بصاحبة ذاكرة قوية، وويلات الحرب استنفدت كل طاقتي ولم يبق منها سوى رائحة البارود، لكن هذا أول ما رأته عيني.

- وماذا عن فتاة الصورة؟ كيف عرفتِ أنها عافيت؟

- من ندبة خدها الأيسر .

- ندبة؟ هل تحمل عافيت ندبة في وجهها؟

- نعم ألم تر ذلك؟

- لا لم أشاهده أبدا.

تبتسم أم عافيت:

- وكيف لك أن تشاهدها، أنت لا تشاهد أحدا في حضورها يابني.

- أنا أرها صافية جميلة جدا لا يشوبها أية شيء.

- نعم هي ندبة بسيطة.

- كيف أصابتها يا أمي؟

عندما كانت طفلة صغيرة كانت تسير شاردة الذهن، وبين وقت وآخر ينقذها أحد أبناء القرية إما من أمام سيارة أو دراجة.

دائمة شاردة تردد بعض الأغاني.

- أغاني؟

- نعم هي تحفظ معظم الأغاني الشعبية الإريترية، بل أكثر من ذلك عافيت الآن تحفظ معظم أغاني الثورة الإريترية.

لم يتوقف الشعراء من إريتريا وخارجها عن دعم الشعب الإريتري وحثه على الثورة والصمود في وجه الإثيوبيين، فيدعمها سميح قاسم بكلمات:

إرتريـا

سمعت عن صبية

تغوص في دمائها

تمسح الغبار والدموع عن أبوابها

وتطرد الأشباح عن سمائها

وقيل إن وجهها

ينضح بالخصوبة

والشمس والعروبة

فمن هي؟

إرتريـا

إرتريا ياغابة مشتعلة

وقمة تكسر عنف عاصفة

ياصرخة غاضبة وقنبلة

ياساعدا وسنبلة حبيبتي أنت أذن

وفيك مثل مابي من العذاب في الهوى وفي الوطن

إرتريـــا

إرتريـا إلى اللقاء ... أننا نحفر مجرى الزمن

وندفع الثمن

- ثقافتك فائقة يا أم إبراهيم.
- يابني الدنيا تعلم، والحرب تعلم الجاهل.

المهم في إحدى المرات لم تستطع عافيت أن تحسم وجهتها يمينا أو يسارا، فاتخذت طريق اليسار كان وقتها

قد سلك سائق الدراجة نفس الطريق، فارتطم بوجهها لتنزف دما كثيرا، حتى أتي بها الجيران إليها، فأخذتها وذهبت بها لطبيب لكنها كانت تصرخ بشدة وترفض خضوعها للجراحة أو خياطة الجرح، فيضطر الطبيب إلى تضميده بقطعة من الشاش بعد وضع المطهرات فقط وبعض من المضادات الحيوية.

تتعرض عافيت لحرارة شديدة طوال يومين إلى أن تهدأ، ونذهب للطبيب بعد أسبوعين ليجد أن الجرح بدأ يلتئم بشكل كبير دون خياطة، وهو ما كان سببا في أن يترك ندبة على خدها.

- الحمدلله.
- هيا لنأكل معًا .
- حاضر ياأمي.
- أعدي الطعام حتى انتهي من استكمال تنظيف الغرفة.
- لا تفعل شيئا، فقط انتظرني.

- لا، أكملي الطعام والمائدة، لن يأخذ ذلك وقتا، فترة التدريب والمعسكر تعلمنا الكثير.

- يافرحة ابنتي بك يامحمد.

يضحك محمد بصوت مرتفع، المساواة بين الرجل والمرأة قضية يجب أن يتناولها الجميع، الساسة والمفكرون والمسئولون، والأهم الأسرة في معاملتها للولد الفتاة.

- أتعرفين يا أمي أن العنف بين الأزواج وحالات الطلاق والهجر دائما وراءها التربية، فإن تربى الشاب والفتاة من الطفولة على أن لافرق بينهما ولا أحد يخدم أحدا، الجميع يمكنه أن يعمل في المنزل وخارجه، الكل يجتهد، الجميع يساعد، لكانت الأمور أفضل من ذلك بكثير.

- هذا دورك يامحمد أنت ورفاقك.

- نعم ياأمي الحروب أكسبتنا صفات وأشياء قد تكون غائبة عنا، الرجل مثل المرأة في ساحة القتال، كل

يحارب ويجاهد ويناضل من أجل نصرة الوطن وهزيمة الأعداء.

- لم أسمع كلمة هذه امرأة وهذا رجل، لا.. جميعنا واحد.

- لم تقف المرأة الإريترية في دور المتفرج، بل كانت في دور البطولة والبطلة المساعدة، وقفت بجوارالرجل، قدمت مااستطاعت من مساعدات، وحملت بعض النساء السلاح، لقد تغنى الشعراء للفتاة الإريترية:

يافتاتي في غد سوف نجتاح السدود

فالشباب إذا أصر فليس توقفه القيود

يافتاتي عن قريب قد تعشقت الجموع

سوف نمضي واثقين نحو مجتمع سعيد

فانشري الوعي قويا بين هاتيك الربوع

وابعثي الفرحة فيها وادفعي عنها الخنوع

يافتاتي أنا حر قد تعشقت الجموع

فاعشقيها أنت مثلي وامسحي عنها الدموع

يافتاتي أنت نور شعاع دفاق السنا

فاسكبيه يافتاتي لنحرر شعبنا

هذه أرضك أنت وهي أيضا لي أنا

والربيع ليس يوهب بل سنصنعه هنا

- أفهم من ذلك أنك ستترك عافيت تعمل؟
- نعم ياأمي، هي لها مطلق الحرية تفعل ما تريد، أو تكتفي ببقائها في المنزل، فذلك يخضع لإرادتها.
- ربنا يكملك بعقلك يابني
- ابنتك لم تترك لي عقلا.. هاهاهاها.

يأكلان ويضحكان ويتناولان القهوة ويستأذن محمد في الرحيل.

- إذن متى ستفتحين مع عافيت الحديث؟

- لا أعلم ياأمي، ما رأيك أن تبادري أنتِ بتلك الخطوة وأنا أكمل الطريق بعدك؟

تضحك الأم بصوت عال:

- يا جبان لا تخف، حاربت الأعداء وحررت البلاد وخضت البحار وتخشى مواجهة عافيت؟ اعتبرها معركة من معاركك، ألم تشتق للبحر؟
- كل المعارك حال وعافيت حال آخر.
- لا أنام ياأم إبراهيم، لكنك يسرتِ الأمور كثيرا بما دار بيننا.
- لكن لا تخبر أحدا بما دار.
- لا تقلقي.

يذهب محمد ممتليء الوفاق، سعيدا بشكل لايوصف، يشعر بأنه محمول على الأعناق، طائرا في السماء، لايرى أحدا ولا يسمع أحدا، فقط يحلق بعيدا جدا.. هناك حيث توجد عافيت.

- عافيت عافيت عافيت.
- سأحضرها لك، الحمدلله أنت بخير.. الحمدلله.

هكذا قال أحمد .

- السلام عليكم أم إبراهيم .
- من على الهاتف؟
- أحمد ياأم إبراهيم.
- أحمد ياولدي كيف حالك؟ وكيف حال أولاد إبراهيم؟
- هل رأيت إبراهيم قريبا؟
- جميعهم بخير ياأم إبراهيم لكن...
- لكن ماذا؟ ولماذا يبدو صوتك هكذا؟ هل أنت بخير؟ هل حدث لك شيء؟ تكلم يابني؟ ماذا حدث؟

يبكي أحمد حزنا، ويتمتم ببعض الكلمات، فلا تفهم أم إبراهيم ما يقول:

- اهدأ ولا تبكِ حتى أفهم ما تقول.
- أقول لك محمد أصيب في حادث.
- ماذا تقول يابني؟ أية حادثة؟ محمد كان هنا منذ ثلاثة أيام.
- محمد أصيب في حادث سير في أسمرا منذ ثلاثة أيام.
- كيف؟
- يالله.
- هل هو بخير؟
- في غيبوبة يا أم إبراهيم، هو بحاجة لكل دعاء.
- الله يشفيه ويعفيه يابني.
- لم أرد أن أخبرك يا أم إبراهيم، لكن اضطررت إلى ذلك؟
- لماذا ياأحمد كنت تريد أن تخبئ عني هذا الأمر؟ ومالذي جعلك تغير رأيك؟

- يا أم إبراهيم محمد في غيبوبة واستيقظ لدقائق معدودة ولم يقل سوى عافيت. لم ينطق اسم أحد سواها، ثم دخل بعد ذلك في غيبوبة.
- ياحبيبي يابني، لاحول ولا قوة إلا بالله
- أشعر بالخجل ياأم إبراهيم في إخطارك بهذا لكني أعلم حبك لمحمد، فربما هذا هو أمله الأخير.

تبكي أم إبراهيم بحرقة شديدة:

- اللهم رده إلينا، اللهم خذ بيده، يارب لطفك ورحمتك
- سأتولى الأمر يا أحمد لا تقلق.
- هل أخبرت أحدا؟
- نعم أخبرت مكئيل لكن لم أستطع الوصول لإبراهيم، واستحييت أن أتصل بعافيت، ووجدت أن الأفضل إخطارك بالأمر.
- لاتقلق يابني، في الصباح الباكر ستجدني أنا وعافيت. ابق بجانبه حتى الصباح.

- حاضر يا أم إبراهيم.

- استودعك الله.

- استودعك الله الذي لاتضيع ودائعه.

تغلق أم إبراهيم الهاتف، تدخل في نوبة بكاء شديدة، تتذكر ما دار بينها وبين محمد وطلبه للزواج من عافيت، حلمه الذي تمناه ليل نهار.

يا الله أتكون تلك النهاية! أتكون تلك نهاية الفتى دون تحقيق حلم حياته؟ ياالله.. أكان هذا طعامه الأخير معي؟ أكانت القهوة فنجانه الأخير! اللهم خذ بيده ورده إلينا سالما.

يبدو أن محمد لم يحتمل الفرحة، لم يحتمل قلبه تحقيق أحلامه المتتالية بدءا من التحاقه بالبحرية مرورا بتحرير الوطن مدينة تلو الأخرى نهاية بعلمه بحب عافيت له.

- اللهم خذ بيده.

ظلت تلك دعوة أم إبراهيم المستمرة في الصلاة وفي الطريق، فهي لم تنتظر حتى يأتي الصباح، بل اتخذت طريقها في الليل، فلم يعد شيء يخيفها بعد مارأته في طريقها لمخيم اللاجئين.

الآن هي في أمان وبين أحضان القرية الصغيرة والوطن الكبير، فاليوم لا خائن ولا كذاب، الوطن ثم الوطن، ثم الحفاظ على أرواح الثوار الأحرار.

ياالله أيموت محمد في حادث سير رغم صموده في كل هذه المعارك؟ أتكون تلك النهاية؟ بعد نجاته من ويلات الحروب ودمار العدو؟

أستغفر الله العظيم، أستغفر الله العظيم

ماذا أقول، سامحني ياالله، كل نفس ذائقة الموت، ولكل أجل كتاب.

ارتدت أم إبراهيم ثيابها وحملت حقائبها مسرعة إلى منزل إبراهيم حيث توجد عافيت، تطرق الباب، لا أحد

يجيب، مرة وثانية وثالثة لا مجيب، في المرة الرابعة سمعت صوتا من الداخل:

- حاضر إني قادمة.

تفتح عافيت الباب:

- أمي! أمي ماذا حدث؟ هل أنتِ بخير؟ و لماذا جئتِ في هذه الساعة المتأخرة؟ ماذا حدث؟ هل أغار الإثيوبيون ثانية على قريتنا؟ هل أصبت بمكروه؟

تتحدث عافيت وهي تتفحص يد أمها ووجهها وقدميها لترى ماذا حل بها، الأم تبكي، لا تتكلم فقط تبكي.

- ماذا يا أمي قولي ماذا حدث؟
- محمد.. محمد يا ابنتي.
- ماذا به؟ ماذا حدث ياأمي.

عافيت تشعر بخوف شديد ورهبة تفزع قلبها:

- ماذا يا أمي ماذا حدث؟

- محمد في المستشفى؟

- ماذا؟

- محمد دخل المستشفى أصيب.

- يالله هل أصابته رصاصة ياأمي؟ هل كانت يد العدو الغادرة من فعلت به ذلك؟ لكن كيف ياأمي؟ وهي في مدينة محررة بالكامل من الإثيوبيين؟

- لا يابنتي، محمد أصيب في حادث سير.

- كيف وما حالته الآن؟

- هو في حالة غيبوبة.

- يا الله.

تبكي الأم ثانية وتبكي عافيت، ولا يمكنها أن تتماسك أمام والدتها، فلم يعد القلب يتحمل أن يخفي حتى في تلك اللحظات.

تحتضنها والدتها بين ذراعيها، تحاول تهدئتها؛ فهي تعلم ما تشعر بها ابنتها حتى ولو لم يتصارحا يوما، لا تتوقف عافيت عن البكاء، بل إن مريم أيضا تبكي وتصرخ.

- مريم ماذا حدث؟

تبكي مريم قائلة:

- أنا خايفة.

- من ماذا ياحبيبتي؟

- حلمت أني سأغرق ياماما.

- بعد الشر عليك، تعالي إلى حضني.

تحضنهما الأم وتأخذ عافيت ومريم بين ذراعيها.

- يارب سلم سلم، يارب رحمتك وعفوك ورضاك.

لا أحد ينام، مريم مؤرقة من الكوابيس، وعافيت مؤرقة مما يخبئه لها القدر، وأم إبراهيم تقيم الليل داعية الله أن ينقذ محمد وأن يرده سالما.

في تمام الساعة السابعة صباحا يذهب الثلاثة إلى حيث المشفى التي يرقد بها محمد وعافيت تشد بيد مريم وأمها تشد على يدها، لا أحد يتكلم، لا أحد يريد أن يفتح في البكاء، كل يدعو في صمت.

- هيا أسرع، هيا.

الطرق مزدحمة، ولا أحد يحتمل التأخير لدقيقة واحدة، فلا أحد يعلم ما يخبئه لهم القدر.

هل يمكن أن يلحقا بمحمد؟ هل لازال حيا؟ هل يفيق من غيبوبته؟ بما يشعر الآن؟ هل يتألم أم لازال لا يعي ولا يدرك شيئا؟

جميعها أسئلة تغوص في عقولهم، لكن لا أحد يبوح للآخر بما يدور بداخله، ومريم تحمل بيدها حقيبة صغيرة تضع بداخلها ورقا للرسم وقلما من الرصاص، لا تسأل عن شيء، فقط تتابع المارة والسيارات.

الدقائق تمر كأنها ساعات، كل يتألم في صمت، ومريم تكسر صمتهما لتسأل عن سبب خروجهم في الصباح الباكر؟ وإلى أين هم ذاهبون؟

لا تجيب عافيت، لكن الأم تخبرها بأنهم في طريقها لزيارة «بابا محمد».

تتعجب عافيت تخرج عن صمتها:

- بابا محمد!
- نعم محمد يعد بمثابة والدها، ألا تنسى أن مريم ولدت على يده، وأنه من أعطاها لك، فله حق فيها مثلك تماما.
- أنا لا أقصد شيئا يا أمي، لكن أول مرة أسمع تلك الكلمة «بابا» تطلق على محمد.
- يجب أن تعلم مريم ذلك، وربما ذلك يجيب عن تساؤلاتها المستمرة عن والدها.
- معك حق لكن ذلك ليس هذا وقت الحديث عن ذلك.

- من قال لك؟ بل ذلك هو الوقت المناسب للحديث.
- الآن يا أمي.. الآن؟!
- عافيت ما رأيك في محمد؟
- محمد إنسان طيب جدا وأحترمه وأقدره مثل باقي أصدقاء أخي.
- ومريم؟
- مريم ابنتي التي لم ألدها وابنتك أيضا مثلي.
- محمد كان عندي في المنزل منذ ثلاثة أيام.
- عندك؟ كيف؟ ولماذا؟
- نعم كان عندي في زيارتي وأعتقد أنه أصيب عند مغادرته القرية ووصوله لمدينته.
- ماذا كان يفعل يا أمي؟
- كان قاما لزيارتي والحديث عنك؟
- في ماذا ياأمي؟

- يريد أن يتزوجك؟

- يتزوجني!

- نعم يابنتي.

تحتضنها الأم تحت إبطها ضامة ذراعيها عليها:

- كبرتِ ياعافيت وطلبك محمد للزواج.

لا تعرف عافيت ماذا يمكنها أن تقول، في الوقت الذي تعلم فيه برغبة محمد للزواج منها، هو نفس الوقت الذي تعلم فيه بإصابته في حادث وتعرض حياته للموت!

رحمتك يارب.

تسبح عافيت في أحلامها، تطلق خيالها بعيدا، هي تعلم ما يشعر به محمد تجاهها، هي أيضا تشعر مثله، تتألم لبعده، تكره المسافات الحتمية المفروضة عليهما إما بسبب الحروب والتنقلات أو دراستها، والآن أيضا بُعد اضطراري إجباري فمحمد في غيبوبة تامة.

وصل الثلاثة إلى المستشفى، قادتهم إحدى الممرضات حيث يرقد محمد، ليجدوا أحمد في انتظارهم، وإبراهيم في جانب من الغرفة يقرأ القرآن لعل الله يبعث الحياة من جديد لهذا المسكين.

- أمي متى وصلتِ؟

- الآن يابني.

عافيت لا تتمالك نفسها، لايمكنها أن تتوقف عن البكاء، محمد شبه ميت، هو في عالم آخر، لايعي ما حوله.

يدخل الطبيب يتأكد من استمرار ضربات قلبه، فقلبه لم يتوقف بعد، لكن لاشيء يدل على تحسن حالته، بل فقد الجميع الرغبة في سؤاله في كل مرة يدخل بها فهو لايزال أمامهم لايحرك ساكنا.

يتناوب الأصدقاء عليه تارة أحمد وتارة أم إبراهيم وعافيت، و مكئيل ، ومر ما يقرب من ثلاثة أسابيع والدعاء

لا يتوقف، والأمـل لا ينقطع، إلى أن جاءت اللحظة الموعودة والتي طال انتظارها.

فأم مريم تذهب لتتوضأ للصلاة، وعافيت تقترب من فراش محمد تمسك بيديه، فإذا بيده تستجيب لها فيحرك إحدى أصابعه لتنتفض عافيت:

- محمد.. محمد.. هيا استيقظ أنا هنا.. هيا!!

محمد تدب فيه الروح من جديد ويحاول أن يفتح إحدى عينيه، وكأنه أراد أن يتأكد من وجود عافيت بجواره.

- عافيت عاااافيت.

- نعم يامحمد أنا هنا.. هيا نحن جميعا هنا في انتظارك.. هيا عد إلينا من جديد.

محمد يترك يد عافيت ويخلد إلى نومه من جديد، تبتسم عافيت وتضحك في نفس الوقت.

تدخل أمها فتخبرها باستيقاظه، فلا تصدق والدتها ما تسمع.

- حقا هل استيقظ من غيبوبته؟

وكأن الأم لا تصدق، وتعتبره أمنية فقط.

تقيم الصلاة، وتدخل في صلاتها فتدعو الله له بالسلامة والشفاء:

- اللهم رده إلينا رد عزيز مقتدر.

- ياالله.. ياأمي.. محمد عاد للحياة.. محمد استيقظ.

لاتتمالك عافيت نفسها تقبل يديه وجبينه، تحتضنه على فراشه، لاتفكر فيما تفعل، فقط قلبها من يتخذ القرار عنها.

- الحمدلله.. الحمدلله

أم إبراهيم لاتصدق ماترى، تذهب مسرعة تصلي ركعتين شكرا لله الواحد الأحد، ثم تنهض لتلقي السلام على محمد وتقبل جبينه:

- ألف حمدلله على سلامتك يابني.

- أمي.. كم اشتقت لك.

- جميعنا في اشتياق لك، هيا الفرح ينتظرك وعافيت تنتظرك، ومريم ابنتك تنتظرك.

ينظر محمد إلى عافيت لتهز رأسها بالموافقة على ما تقوله والدتها.

- أنا في أحسن حال الآن.. الحمدلله.. أريد أن أخرج من المشفى.. أصبحت بخير الآن.

- استرح يابني مضى الكثير ولم يبق سوى القليل.

ليرد:

- مضي الكثير ويبقى الأكثر ياأمي.. تنتظرنا السعادة وينتظرنا البناء والأمل.. الوطن في انتظارنا.. ونحن بحاجة إلى أوطاننا لنحيا معًا حيث السلام والحياة والانتصارات والأسرة.